رواية

المتقمص

فهد حسن

رواية

المتقمص

فهـد حسـن

الإهداء

الفصل الأول

«الشيء»

عمر الدمرداش

أشعر بخيبة أملٍ كبيرة وقد انتهك التفكير عقلي وأنا أحدق النظر ممسكاً «بنظارة القراءة « الخاصة «بسيف» صديقي المقرب الذي رحل عن عالمنا منذ وقتٍ قريب، أشعر بضيقٍ بقلبي، والدموع تملأ عيناي، أتذكر كًل موقف جمعني به يومًا ، كل الأيام الجميلة التي تمُر ذكراها أمام عينيّ لتغمُرني أحاسيس الحزن والفرح في آنٍ واحد؛ تارة لفراقه وتارة أخرى لأن ذكراه ما زالت بداخلي.

يراودني التفكير في طريقة رحيله ومماته، الكل يردد أنه قام بقتل نفسه وانتحر، وهذا ما أكدته تقارير الشرطة حيث لا دليل أو شبهه جنائية مطلقاً ، لم يقنع قلبي أبدًا بما قيل، ولن يصدق عقلي كذلك، كنت أعرف سيف وعقليته عن ظهر قلب وحق المعرفة، أعرف معدنه ومدى تدينه مؤخرًا ، فكيف لا أعرف صديقي الذي تعرفت عليه منذ عشرة أعوام كاملة!

أشعر وكأن سيف يجلس أمامي الآن، كما اعتاد أن يجلس على تلك الأريكة التي تسكن غرفتي الواسعة، وأنا أتحدث إليه وأُذكره بأيام المراهقة وليالٍ قضيناها سويًا نذاكر دروس

الثانوية العامة، بل ارتفعت طبقة صوتي دون إرادتي وأنا أستشعر وجوده وأحدثه قائلاً:

_تتذكر يا سيف، عندما كنا نملأ سطح المكتب بالكتب والمراجع ونغلق الباب، وبعد أن تتأكد أمي أننا نذاكر نقوم بلعب ألعاب الفيديو «البلاي ستيشن»؟

نبرةٍ صوتي ارتفعت بضحكات ممزوجة بالخبث والسخرية قائلا:

_ لا أتذكر أنك فزت عليّ مرة واحدة من قبل، كنت تخسر دائماً، وفي كل مرة تخسر فيها تصيح بحُجةٍ جديدة، وأكثر هذه الحُجج، أن ذراع التحكم لا يعمل جيداً فأقوم باستبداله معك فأهزمك أيضا، لتخترع حُجة جديدة قائلا:

_هذه ليست لعبتي المفضلة التي أُجيد لعبها.

فأقوم بتشغيل قرص لعبتك المفضلة فتخسر مجددًا!

لا أُنكر أننا كنا نذاكر بعدها، ولا أنكر أيضًا أنك كنت متفوقاً عني دراسيًا، كما أنني لا أنكر كم أفتقد وجودك وصوتك الآن، كيف لك أن ترحل دون أن تودعني يا صديقي؟ ما يرهقني ويحزُنني ويلهب قلبي بالضيق والغم، أنني لا أستطيع إيجاد إجابة على سؤالي، أعلم جيدًا أن الموت آت لا محالة، تتعدد الطرق والأسباب والأوقات والأعمار والموتً واحد؛ حقيقة مطلقة يدركها المرء منذ نعومة أظافره، أعرف اللّٰه جيدًا وأؤمن بقدره وحكمته، ولكن طبيعتي البشرية تلحُ على عقلي وقلبي كثيرًا، كنت أريد وداعًا يشبع قلبي الذي

دمره الحزن عليك، وأضاف على الحزن حزنًا؛ رحيلك بتلك النهاية الغريبة، ها أنا ذا أقف عاجزًا أمام ما تبقى لي من ذكراك؛ نظارة القراءة «الأنتيكة» المفضلة لديك، ربما لم يكن في الحسبان المفارقة سريعًا، فلم يتبقَ من الذكريات سوى الأيام الجميلة الماضية وتلك النظارة فقط.

رحل سيف وترك لي وابلًا من الأسئلة، يحتار عقلي أن يجد لأيٍّ منها إجابة منطقية:

- لماذا ابتعد سيف عني واختفى فجأة قبل وفاته بشهرٍ كامل؟
- وكيف كانت الوفاة بهذه الطريقة؟

ربما هناك المزيد من الأسئلة ولكن عقلي يرفض طرحها علانية، ولكن ربما هنالك سبب لا يدركه عقلي نهائيًّا!

جاء صوت أمي من الخارج قاطعاً حديثي إلى نفسي وهي تقول:

_هون على نفسك يا (عمر)، لقد أعدت لك بعض الطعام.

وضعتُ نظارة القراءة الخاصة بسيف على مكتبي، دنوتُ من باب غرفتي، وقمت بمسح الدموع المتساقطة على وجنتيّ، تصنعتُ ابتسامة كاذبة على شفتيّ، وفتحت الباب لها، فأخذت الطعام وشكرتُها وقبلت يدها، طلبتُ منها أن تسمح لي بمزيدٍ من العزلة، ووعدتها أنني سأكونُ بخير قريباً، فقط أحتاج بعض الوقت، واستأذنتُها وأغلقت باب غرفتي مجدداً.

حملت صحفة الطعام، ودنوتُ من مكتبي الخشبي لأضعها فوقه، فلمحتُ طيفاً أو ربما خيالاً قد جاء من خلفي بسرعة كبيرة وغريبة؛ قطع الغرفة بسرعة رهيبة، كما يضرب ضوء البرق الأرض في لمح البصر، ثم فات وخرج من نافذة غرفتي!

ارتجف جسدي واهتز، حتى كادت صحفة الطعام أن تسقط على الأرض مني!

تمالكت نفسي ووضعت الطعام فوق سطح مكتبي، خطوتُ ببطء صوب نافذة غرفتي المغلقة، فتحتها وأنا أنظر خارجها، لا أعرف ما الذي أبحث عنه تحديداً، ولا أعرف لماذا أقدمت علي فعل هذا، لكنني لاإراديا فعلتها وكأن أحدهم سرق شيئاً مني فتتبعتهُ دون إدراك أو وعي، فأضاف هذا الخيال الذي ظهر واختفى فجأة؛ حيرة أخرى وسؤالاً إضافياً على أسئلتي التي لا إجابة لها.

لكنني حاولت عبور المحنة محدثاً نفسي:

_ إن حالتي النفسية قد ساءت كثيراً وربما تدهورت، علي الامتثال إلى ما قدرهُ اللّه لي و لسيف، وأن أعبر تلك الحالة بالدعاء له، فالحياة مستمرة دائماً، لن تقف أبداً لفقد عزيز أو حبيب.

جلست فوق كرسي مكتبي، وبدأت بتناول القليل من الطعام، حتى اهتز هاتفي بمكالمة واردة من إسراء خطيبتي.

******

إسراء

تأكدت أن عمر قد غادر المنزل، انتهزت الفرصة، وصعدت درجات السُلم حتى أقابل والدته، طرقت الباب لتفتح وعندما رأتني غَزتْ الدهشة ملامحها، لتتخلى عن صمتها الذي لم يدُم طويلاً ودعتني للدخول.

دخلت وأنا أقول باكية:

_لقد تغير عُمر كثيرًا منذ وفاة صديقه سيف، لم يعُد عمر الذي عاهدته وعرفته، لقد تبدل بشخص آخر، جامد القلب صلب العاطفة، شارد الذهن دائمًا، يتحدث إلى نفسه كما لو أنه يحادث شخصاً ما، هو فقط الذي يراه! وعندما أسأله مع من يتحدث؛ يشرد ذهنه ولا يُجيب على سؤالي!

قاطعتني والدة عمر متسائلة:

_ هلا قصصتِ علي ما يحدث لك مع عمر بالتفصيل منذ أن أدركتِ هذا التغيير عليه؟

أخذتُ نفسًا عميقًا وبدأت التحدث إليها بنبرة يسيطر عليها الحزن:

_ تعلمي يا أمي أن صديق عمر المقرب سيفٍ، قد توفى منذ وقت قريب، بعدها تبدل حال عمر كلياً، كلما اتصلت به عبر الهاتف يتجاهل اتصالاتي ولا يرد مطلقاً، فقط يرد بين الفينة والأخرى على رسائلي عبر «الواتس آب» بأقل الكلام، فَألححتُ عليه أن نتقابل وكان يرفض دوماً، وبعد محاولاتٍ عدةٍ وافق بصعوبة، وعندها رأيته كما قلت لكِ؛

شارد الذهن، مشتت العقل، يتحدث بينه وبين نفسه بصوتٍ منخفض، وعلى حين غرة يعلو صوته غاضباً، ثم يدرك أنَه قد خرجٍ عن السياق، فيستجمع شمل نفسه ويعود أدراجه سريعاً وكأنه لم يكن هو، ويسألني:

_فيما كنتِ تتحدثين؟ أنا لا أتذكر شيئاً.

بينما تكون نظراته حائرة؛ تجوب وتمسح كل أرجاء المكان!

لقد مر أسبوع رأيته خلاله ثلاث مرات، وفي كل مرة يحدث الشيء ذاته ويتكرر، لكن ما أجبرني على المجيء إليكِ هو الشيء الغريب الذي حدث في مقابلتي الأخيرة مع «عمر» أمس.

جَففتُ دموعي، وشهقتُ وأنا استرجع كامل المشهد أمام عيني، ثم أردفتُ حديثي إليها:

_ في تلك المرة كانت المقابلة عندي في منزلي، جعلتِ أمي تتصل به وتصر على أن يأتي وقد كان؛ جاء عمر سريعاً دون أن يتأخر عن موعده، كان يبدو عليه السرور، يبتسم بتلقائية كما عرفته تماماً، فخمنتُ حينها أنه عاد إلى نفسه مرة أخرى، عاد عمر الذي أعرفه بعد ما نفض الحزن عن قلبه، جلس يتحدث إلى أمي ويداعبها بكلامه الموزون، وبعد مدة قصيرة من الوقت طلب استعمال الخلاء، ثم غاب لبضع دقائق، وعندما خرج، وجدته قد بَدل ملابسه!

وقفت أمامه والدهشة تسكن ملامحي وقلت له مسرعةً:

_من أين حصلت على هذه الملابس وعندما دخلت إلى

الخلاء لم تكن تحمل أي ملابس إضافية؟ كيف بدلت ملابسك إذاً!

صمت ولم يتفوه بكلمة، ثم مر من أمامي وهو يبتسم ابتسامة مرعبة بعض الشيء ليفتح باب الشقة ويغادر!

ركضت خلفه حال خروجه ولكنني لم أجده، وكأنه تبخر ولم يعد له أثر مُطلقًا!

اتصلت به فلم يـُجِبْني، عاودتُ الاتصال به مرة تلو الأخرى لعشر مرات أو ربما أكثر من ذلك بقليل، ملأت الدموع عينيّ، وصرخت ونحبتُ لتأتيَ أمي من المطبخ مسرعة تهرول إثر سماعها صوتي، فارتميت بين أحضانها وأنا لا أعرف ما الذي عليّ فعله تحديداً، ولا أعرف ما هذا الذي بدا على تصرفات عمر!

انتظرت أن يأتيَ الصباح، وجئت إلى هنا، وقفت أسفل البناية، واختبأتُ جيداً حتى لا يراني عمر عند ذهابه إلى العمل، وبعد أن شاهدته يرحلٍ، صعدت إليكِ لأخبركِ ما حدث، لعلكِ تجدين لي تفسيراً منطقياً.

كانت والدة عمر السيدة «صفاء» تستمع إلى حديثي بدهشة وذهول ولكن بنسبة أقل مما كنت أتوقع، صمتت لثوانٍ معدودة، ثم قالت بصوتٍ يتخللهُ الحزن:

_أعرف أنه تغير كثيراً، أسمعه يومياً منذ تلك المدة التي قمتِ بذكرها مسبقاً، يتحدث إلى نفسه دوماً بصوت عالٍ، كنت أعتقد أنه يتحدث عبر هاتفه، لكنني أدركت أنه

يتحدث إلى شخص ما موجود بالفعل معه داخل غرفته، لقد سمعته يبادله أطراف الحديث، كان صوت من يتبادل معه عُمر الحديث أجش، غليظ، لم أستطع تفسير ما يقول تحديداً، لكنني سمعتُ الصوت بوضوح، عندها ارتجف جسدي وانتفض قلبي، ولاإراديا طرقت باب غرفته، ففتح لي، استرقت النظر إلى الغرفة فلم ألحظ تواجد أحد بها، سألته مع من كان يتحدث، فأجاب:

_ ربما اختلط عليكِ الأمر يا أمي، لقد بدأت أتحسن وسأعود إلى العمل قريَباً.

تركته وعدت إلى مشاهدة التلفاز الصغير داخل غرفتي، لكن قلبي لم يقنعْ بما أخبرني به، أخذت أفكر في الأمر قليلاً، إلا أنني اندمجت مع إحدى المسلسلات وتجاهلت ما حدث، حينها فُتح باب غرفة عمر فقلت له:

_ هل تريد أن تأكل؟

فلم يُجبْ على سؤالي! وسمعت أثر أصوات قدميه تعبر عن قدومه نَحوَ مجلسي، فلما ظهر عابراً من أمام باب غرفتي لم يكن هو!

كان شيء يشبه الخيال، ذو هيئة مرعبة، نظر إلي بعينين سوداويتين لامعتين، ووجههُ الأسود المتفحم، فبدا من النظرة الأَولى شبيهاً لعمر بهيئة مرعبة، ثم تغير فجأة وتحول إلى ظلاً نحيل الجسد، له ذراعين طويلين وساقين قصيرتين للغاية!

تصلب جسدي ولم يعد باستطاعتي الحركة أو الكلام لبضع ثوانٍ، ثم اختفى ذلك الشيء ليأتي عمر خلفه وينظر إلي في دهشة قائلاً:

_ لماذا تنظرين إليّ بهذا الخوف؟ هل هنالك خطب ما قد حدث!

لم أتفوه بكلمة وبكيت، فجاء إلي واحتضنني وقَبّل جبهتي ويدي وقال لي:

_ سأصنع القليل من القهوة لي ولكِ، ثم ذهب إلى المطبخ.

وعندما أنهت والدة عمر السيدة «صفاء» حديثها ،سمعنا صوت باب غرفة عمر يُفتح ليطل منه عمر نفسه علينا! يفرك عينه اليمنى براحة يده اليمنى، ويتثاءب واضعاً ظهر كف يده اليسرى على فاهُ قائلاً بصعوبة ودهشة:

_ هل أنا أحلُم أم إنكِ هنا بالفعل يا إسراء؟

******

عمر

أجبت على مكالمة إسراء، وقُلت:

_ أعلم كل العلم أنني مُقصر في حقكِ، ابتعدت قليلاً، إذ أن نفسيتي ليست على ما يرام ، وأعرفَ جيداً أنكِ منزعجة مني كثيراً ولهذا أقدم اعتذاري وأعرف أنكِ تتفهمين ما أمُر به.

قامت إسراء بإصدار صوت يواري خلفه الدموع، وقالت:

ـــلا بأس، أريد أنِ أراكَ بخير لا أكثر من ذلك ،أريد أن تعود كما كنت سابقاً ، أنت تعرف اللّه جيداً وتؤمن بقدره ومشيئته، فدع الحزن عن قلبك وتَضّرع للّه داعياً لصديقك بالمغفرة.

ـــنعم، فأنا لا أملك غير الدعاءِ له الآن، ولكنني أعتذر لكِ على ما اقترفته في حقكِ مؤخراً.

بعد اعتذاري لها، بدأت تلحُ علي كثيراً أن تقابلني، قابلت ذلك بالرفض، أخبرتها أنني بدأت بالتعافي، ولكنني لازلت أحتاج بعض الوقت، لم يجدِ ذلك نفعاً، أصرت أن أقابلها، وبعد الكثير من إلحاحِ النَساء الذي لا مفر منه وافقتُ ورضختُ لطلبها، اتفقتَ معها على موعد في اليوم التالي وقت الظهيرة، في نفس المكان الذي اعتدنا أن نتقابل عنده، أغلقتُ معها المكالمة، ووضعت هاتفي بجانب صحفة الطعام، لكنني لم أعُد جائعاً، فعرجتُ إلى شرفة غرفتي أستمتع ببعض الهواء العليل وأُدخن، ربما التدخين عادة سيئة وقميئة، لكنه فٍي بعض الأحيان يكون صديقًا جيدًا في الوحدة، خصيصاً عندما تريد التفكير، ربما هذا مبرر سيء للتدخينٍ، لكن لا بأس؛ نحن نكتسب الكثير من العادات السيئة أحياناً، ولا نستطيع أن نبتعد عنها بسهولة، رغم علمنا بمدى السوء الناتج عن أضرارها!

وقفت داخل شرفتي، كان الوقت غسقًا، بقيت أنظر إلى السماء الملونة بالبرتقالي، يبدو الجو صافيًا ولكنني أكرهُ مغيب الشمس، وأُبغض البرتقالي كذلك، أشعر وكأن أحدهم

أحكم قبضتيه حول عنقي، وقام بسحق قصبتي الهوائية، أدركتُ أن هذا لن يدوم طويلا وستأتي العتمة قريباً ومعها القمر، ربما لا أحب العتمة كذلك ولكنني أحب إطلالة القمر البيضاء في وسط السماء المعتمة، يُنير الأرض بضوئه، مثلما أضاءت إسراء حياتي تماماً.

كم هي مسكينة، رغم أنها كباقي النساء، لا تكُف عن الثرثرة دون جدوى، لكن لها قلبًا طيبًا رقيقًا يحمل الخير دائما، تتحمل تقلُبَ مزاجيتي كثيراً.

وبينما كنت أفكر بها، احتل تفكيري سيف وطريقة موته البشعة، أنا على يقين تام أنه لم ينتحر أبداً، بل قُتِل، ولكن لا جدوى من تلك التخمينات، لا يوجد أي دليل يؤكد ذلك، التخمينات كلها تعود إلى حدسي فقط، وهذا لا يكفي، كيف أثبت هذا؟ كيف!

في هذه الأثناء سمعت صوت باب غرفتي يُفتح، كان هناك أصوات اصطكاك أقدام بالأرض داخل غرفتي، خمنت أنها أمي فلم أتحرك من موضعي، قلت:

ـــ أنا هنا، أقف بداخل الشرفة يا أمي.

لم تُجب! توقف صوت الأقدام فجأة، ثم عاد ليخرج من الغرفة!، كان إيقاع حركة ذلك الصوت بطيء وغريب، هرولتُ مسرعاً خارج الشرفة حتى دخلت الغرفة، فلم أجد أحداً بالداخل، لكنني وجدتُ بعض قطرات الدماء على سطح مكتبي وورقة كتب فيها:

«لا تفكر كثيراً، ولا تحاول أن تواجه أبداً، فكل الذين وقفوا أمامنا، أُدرجت أسمائهم داخل قوائم الموتى»!

أخذت أتلفت حولي، يميناً ويساراً، أيقنتُ أن هناك خطب ما يؤكد حدسي، وأن سيف لم ينتحر بل قُتلَ!

ولكن كيف؟ كيف دخل شخص ما بسهولة إلى غرفتي وترك لي هذه الرسالة!

تركت الورقة فوق سطح مكتبي وهرولتُ مسرعاً إلى باب الشقة، فوجدته مغلقاً، حينها تسلل الخوف إلى قلبي، وراود عقلي سؤال جنوني:

أيعقل أن يكون القاتل ليس ببشر، وينتمي إلى عالمٍ آخر؟

قطع تفكيري صوت أمي تسألني في استغراب:

_هل جُننتَ؟ لماذا تتحدث إلى نفسك هكذا؟ ما الذي حل بك!

_لا شيء يا أمي، أفكر فقط بصوت عالٍ حتى أجد إجابة مناسبةٍ لكل ما يدور في ذهني، لا بأس؛ سأعود إلى غرفتي مجدداً.

عُدت إلى غرفتي، ونظرت إلى سطح مكتبي فلم أجد قطرات الدماء ولا الورقة! اِختفيا فجأة!

كاد عقلي أن يصاب بالجنون، لممت شتات نفسي، وأغلقت الباب، ثم جلست فوق كرسي مكتبي، حدثتني نفسي أن أُلقي نظرة على تلك النظارة، فجلست أتفحصها، حاولت

نسيان ما حدث، وركزت فيما هو قادم، ربما هناك خطب ما بها، أعرف أن الركض وراء إحساسي وحَدسي شيء من الجنون، لكنني أشعر بأنني أمضي بالطريق الصحيح.

ثبتتُ النظارة التي تتكون من زوجين من العدسات المخصصة للقراءة على أنفي؛ كان لها زوجين من ضمادات بلاستيكية لينة، رقيقة الملمس، حتى لا تجرح جلد الأنفً من الأعلى، مزودة بسلسلة من الفضة، تحيط بمؤخرة الرأس عند ارتدائها، لتضيفَ مزيداً من الثبات أثناء القراءة، لكنني وضعتها على أنفي فقط دون السلسلة، وعلى حين غُرة، رأيت مشهدًا بشعًا لا أصدقه، إذ أنني رأيتُ أشخاصاً كُثر موتى! جثثهم مُمددة على الأرض، تسيل الدماء من أنوفهِم وأفواههم، أعينهم جاحظة من الخوف، جميعهمٍ مُكفنيَن داخل أقمشة بيضاء، نائمين في اصطفاف أفقياً بجانب بعضهم البعض!

لم أٍستطعٍ أن أزيحَ النظارة سريعاً، أُجبرتُ أن أرى المشهد كاملاً رغماً عني، ثم اختفى كل شيء فجأة، كما ظهر فجأة، ألقيت بالنظارة على المكتب وجسمي يرتعش، لم يكن باستطاعتي التنفس بسهولة، وظل قلبي يدق بسرعة كالقطارِ!

دق الباب على حين غرة، فصرختُ، ووثبتُ من مجلسي صارخاً بفزع، سمعت أمي تقول في حيرة:

_أمازلت تحادث نفسك؟

هممت وفتحت الباب، فرَمقتني بنظرة دهشة، اشرأبتْ تنظر من فوق كتفي، مسحت بعينيها جميع أرجاء الغرفة فقلت لها:

_ لا تقلقيٍ يا أميٍ، أنا بخير، بدأت أتعافى، لقد أخبرتكِ بذلك مسبقاً، وقريباً سأعود إلى العمل.

لم يقنعها قولي، ولكنها تركتني دون أن تنطق بكلمة وذهبت، فعُدت إلى الجلوس فوق سريري بعدما أخذت النظارة من فوقٍ سطح مكتبي، ظللت أحدق بها مرة أخرى، علني أرى شيئًا آخر، يفسر لي ما يدور!

******

إسراء

كنا ننظر إليه في دهشة وحيرة من أمرنا، فأنا متأكدة أنني قد رأيته ذاهباً إلى العمل كما أتأكد من اسمي!

لقد رأيته بنفسي وظللتُ أتبادلَ أطرافِ الحديث مع والدته قرابة النصف ساعة، وهي تبرهن أيضاً على أنه قد غادر المنزل واتجهَ إلى عمله بعدما مكث أياماً عديدة يلزم المنزل مُتغيبًا عن العمل لسوء حالته النفسية!

تحدث عمر ليزيدُنا ذهولاً ودهشة قائلا:

_أعلم تلك الحركات النسائية المجنونة، لقد جئتِ إلى هنا بعد أن مكثت معك شارد الذهن عند آخر مقابلَة جمعتنا سوياً، مُذ أسبوع، أَتذكر أنني تهربتُ كثيراً من لقائك لكنني

أتفهم ما تشعرين به ويسيطر على إحساسكِ جيدا، وكنت سأُصلح كل شئٍ بيننا وأقدم اعتذاري، لكنكَ دائماً سباقة بالخير شكراً لكِ على كل ما تفعلينه من أجليَ.

أجبتهُ في ذهولٍ:

- ولكننا تقابلنا عدة مرات، كيف لا تتذكر! كيف لم تذهب إلى العمل وقد رأيتك بنفسي تغادر المنزل وقد أكدتَ والدتك على هذا!

غزى الارتباك ملامحه، وقال:

_ماذا تقولين! أنا لم أركِ سوى مرةٍ واحدة فقط لا غير، لم يكن اللقاء طويلًا، لقد كَنت مشتتاً وفي حالة غير حالتي المعتادة، ولتأكيد كلامي؛ أنا لم أقم بالرد على مكالماتكَ سوى مراتِ قليلة، وكنت أرد فقط على رسائلك بين الفينة والأخرى لَيس أكثر، تفضلي هاتفي، انظري إليه بنفسكِ لتتأكدي من صحة قولي.

أخذت هاتفه، فوجدت حديثه صحيحاً لا ريب فيه، وأعطيته هاتفي وجعلته يتفحصهُ حتى يُصدق قولي، نظر إلى المكالمات الصادرة من هاتفي، فعقد ما بين حاجبيه وفتح فاهُ من الدهشة مما رأى، إذ أنه وجد أنني لا أكذب!

ثم استرسلتُ الحديث تجاه عمر أسأله:

_ هل عندك تعليل منطقيٍ لما يحدث؟ أنت تقول أشياء وتُبرهنَ عليها، وأنا ووالدتك قد قدمت كل واحدة منا ما يُثبت صدق قولها، إذا؛ ما الذي يحدث يا عمر!

جلسٍ عمر حينها فوق أحد كراسي الردهة، وكأنه خرجٍ منهكاً للتو من إحدى المعارك القاسية، تنهد، ثم تابع قائلاً أنه لا يملك ما يقوله، ولا يعرف ما الذي يحدث تحديداً، أطرق برأسه، ثم أردف بأسى:

_موت سيف كان غريباً، قالوا أنه انتحر، لكنني لا أصدق، قلبي وعقلي يرفضان الاعتراف بما قالوا، هذا ما كان يطرق أبواب عقلي ليلة أمس، عندما كنت أقف داخل شرفة غرفتي، وبينما كانت الأفكار تترنح داخل عقلي؛ سمعت صوت الباب يُفتح، ظننت أنها أمي، وجهتها بصوتي لمكان وجودي، فسمعت صوت أقدام على الأرض، دخلت ثم عادت لتخرج من حيث أتت، فركضتُ خلف الصوت لأجد دماءً سائلة فوق سطح مكتبي، وورقة كتب فيها جملة غريبة، عندما قمت بقراءتها؛ ارتعدَ جسدي وأصاب الخوف قلبي، شعرت أن هنالك شخص ما يوجه لي رسالة دقيقة ومعينة، لكنني لا أفهم مغزى الرسالة، أنا مشوش ومُنهك، لا أستطيع تفسير ما يحدث، لكنني أستطيع القول أن هناك خطب ما بسبب تلك النظارة التي كان يمتلكها سيف، ربما والدته تملك شيئًا لم تبُح به بعد وتُخفيه عني، لا بد أن أعرفه!

بعد ما أنهى عمر حديثه، شعرت أن كلامه غير مرتب وغير منطقي، لكنه كان نابعاً من قلبه دون كذب، ربما هنالك شيء ما لا أحد يستطيع تفسيره، لكنني قد مللت طريقته هذه، فقلت له بحنقٍ:

_ إذاً لا زلت لا تستطيع أن تجرد عقلك من هذه الأكاذيب

وتعود إلى حياتك الطبيعية، لقد مات سيف، حتى وإن كان صديقك الذي لم تحب غيره، لكنه رحل إلى الدار الحق، أنت هنا وعليك أن تكمل هنا، وإلا ستخسر كل شيء.

قُلتُ هذا وغادرت المنزل دون أن يتحرك من مكانه، كادت والدته أن تلحق بي، لكنني ذهبت مسرعة وقد سال الدمع على وجنتي وأنا أحاول تدارك الأمر حتى أستطيع العودة إلى المنزل.

وبعد أن عُدتُ إلى المنزل، دخلتُ إلى غرفتي، وألقيتُ بثقل جسدي فوق سريري، بكيتُ حتى كدت أن أفقد روحي، وأنا أقول في نفسي:

_ ربما حديثي إلى عمر كان جامداً يخلو من اللين، ربما كنت حمقاء أعماهَا الغضب عن الصواب، لكنني لا أريد أن أراهُ تائهًا هكذا، إنه يفقد نفسه وحياته، كم أكرهُ هذا التسرع، وكم أُبغض نفسي كثيراً لأنني تصرفت هكذا معه، لكنني فعلت هذا من أجله، من أجل أن يعود عمر الذي كان عليه من قبل.

وجدت هاتفي يهتز بمكالمة وكان عمر، فجففتُ دموعي وأجبتهُ فقال:

_سأعود كما كنت، لا تخافي عليّ، سأكون بخير قريباً،

لا أريدكِ غاضبة مني، أريدكِ بجانبي دائماً، تكونين لي درعاً أوَاجه به مخاوفي وقلةَ حيلتي ويأسي، أصبحتُ أرى أشياء غريبة وغير منطقية على الإطلاق، صدقيني

هناك شيءٍ ما يحدث يجب أنِ أجد له تفسيراً، سيف لم يمت منتحراً يا إسراء، سيف قُتلَ ولا بد أن أعرف الجانيٍ، حدسي يقودني إلى هذا الاستنتاج، وقد تلقيت اتصالاً هاتفياً من والدة سيف، تريد مني زيارتها في منزلها لأمر ضروري، أريد أن تكوني معي، تعلمي كم أحبك، وما هو حجم مكانتكِ في قلبي، كوني بجانبي فقط.

لمعت عيناي فور إنهاء عمر كلامه، فرق قلبي وسألته:

_ ومتى سوف تذهب إلى زيارتها؟

قال:

_غداً، سوف آتي إليكِ أمام منزلك في الخامسة مساءً، شكرًا لكِ على كل ما تفعلَينهُ من أجلي.

أغلقت مع عمر المكالمة، كانت بمثابة إنقاذ لروحي التي كانت في طريقها أن يُزهقها البكاء، لقد ردٍ إليّ روحي بكلماته الحنونة المختارة بعناية فائقة، فدائماً يُحسن عمر انتقاء ما يقوله جيدا، سأكون بجانبه، لن أتخلى عنه مهما حدث، سأحاول أن أختار الكلمات المناسبة في غضبي.

مر اليوم سريعاً، وفي اليوم التالي وفي تمام الرابعة والنصف، كنت قد تجهزت للذهاب مع عمر حتى لا أتسبب في تأخُّره عن موعده وهذا على عكس عادتي، ثم جاءت الخامسة فاتصل بي ليؤكد أنه يقف بسيارته أمام باب منزلي، ركضتُ مسرعة وركبت المصعد، وعندما وصلت إلى الدور الأرضي وفُتح باب المصعد، وجدت رجلاً ذو ملامح غريبة، لم أعتَد

رؤيته مطلقاً، بدا على ملامحه وكأنه يختنق، فقد حُبس الهواء عنه حتى بدا لون بشرته أزرقًا!

خفت من طلته، فدخل المصعد ولم يغلق الباب، ولا أعرف ما الذي أصابني فجعلني لا أستطيع أن أُزيح نظري عنه، وقف في استقامة، لمحت الدماء تسيل من أنفهُ وفمهُ، جحظت عيناهُ، وكادتا أن تسقطانِ من مُقلتيه، تحول لونهما بالكامل إلى الأسود فصرخت بكلَ ما أوتيتُ من قوة، وهرولتُ صوب باب البناية الحديدي ليصطدم بي عمر مذعوراً وهو يسألني ماذا حل بي!

لم أكن أستطيع التقاط أنفاسي بسهولة من هول المشهد الذي رأيته، أكاد أبتلع ريقي بصعوبة بالغة، يكاد قلبي أن يمزق صدري ويخرج منه من الخوف، أشرتُ له بيد ترتجف ناحية باب المصعد، ولكني لم أتمالك أعصابي، فخارت قواي وسقطت فاقدة للوعي.

******

عمر

سمعتُ دوي صرخات إسراء، فهرولتُ تجاهها في عجلة من أمري، واصطدمتُ بها عند مدخل بوابة البناية الحديدية، كانت تركض كظبي مذعور يهرب من مطاردة مفترس له، ارتمت بجسدها نحوِي وكأنها وجدت طوق النجاة، ثم فقدت وعيها وتهاوتْ بين ذراعيّ بعدما أشارت بسبابتِهَا وهي ترتجف؛ ناحية المصعد المغلق!

حملتُها إلى المصعد ومنه إلى شقتها، طرقت الباب لتفتح لي والدتها السيدة « فاطمة» وهي تشهق من أثر المشهد، إذ وجدت ابنتها فاقدة للوعي تماماً محمولة بين يديّ، ساعدتني لإدخال إسراء إلى غرفتها ومن ثمَ بدأنا في إفاقتها، كانت تفيق وتنطق بكلمات غير مفهومة، ثم تعود مجدداً إلى الغثيان، لكنني استطعت أن أفسر بعضًا من كلماتها:

_المصعد، الشبح، الميت!

ذهبت إلى الخارج لجلب بعض الماء كي تشرب إسراء ، قمت بفتح باب المبرد، لأجد بداخله بعض قطرات من الدماء الطازجة فوق أحد الأرفُف! وعبارة قد كتبت على سطح المبرد من الداخل:

«ستفقد كل أحبتك، إن تماديت أكثر، نحن نتواجد بكل مكان حولك، لا تعبث يا عمر»!

وبمجرد أن قرأت هذه العبارة اختفت في الحال! واختفت معها قطرات الدم كذلك!

إذاً؛ هناك ما يراقبُني، يتعقب خطاي، ما السبيل الذي ترشد إليه تلك العبارات الغير منطقية؟ ومن الذي يرسل بها إليّ!

عُدت إلى غرفة إسراء سريعاً حتى لا تشعر إحداهما بغيابي، فوجدت إسراء بحال أفضل، أعطيتها الماء فشربت وبدا عليها الطمأنينة والراحة أكثر.

قلت لها:

ــ إذاً؛ فلتبقَيْ هنا لتنالي بعض الراحة، سوف أذهب أنا إلى منزل سيف لمقابلة والدته، وسوف أخبركِ بما دار بيننا، كوني بخير سيدتي.

أومأتْ برأسها بالموافقة، فشعرت كم هي متعبة، ودعتها وذهبت للقاء والدة سيف، كان الطريق طويلاً من حي «الدقي» إلى حي «مدينة نصر» حيث تسكن السيدة وفاء والدة سيف.

وبرغم طول المسافة بين المنطقتين، إلا أنني لم أشعر بها، كان التفكير فيما يحدث يمنعني عن التركيز في غيره، بل أنا لا أعرف كيف قُدت سيارتي كل هذه المسافة دون أية حوادث! لقد تشتت ذهني أكثر فأكثر، لكنني في النهاية وصلت، أنا أسفل إحدى بنايات مدينة نصر الضخمة، الكائنة داخل أشهر شوارعها على الإطلاق ، كان سيف يقيم مع والدته في هذه الشقة المتواجدة داخل البناية الضخمة، فخمة المنظر، كان الجو لطيفاً، والشمس على وشك الغروب، تلبدت السماء بالسحب الرمادية، بدت الأمطار وشيكة على أن تهطل، إذ أن مؤخراً؛ حالة الطقس غير مستقرة وتتغير سريعاً، فتكون في يناير ودرجة الحرارة تتخطى الثلاثون درجة مئوية حتى تشعر أنك في أغسطس، ولكننا على أي حال نقضي ما تبقى من شهر أكتوبر، أغلقت مكابح أبواب سيارتي، وأضافت أحوال الطقس ضيقاً داخل نفسي، عرجتُ إلى المدخل، ثم ضغطت أحد الأزرار المعلقة أسفل البناية وكان يحمل

اسم سيف، حينها لا أعرف ما الذي أصابني؛ امتلأت عينيّ بالدموع، تذكرت ملامحه عندما رأيته قد فارق الحياة، وهو ينظر بخوف إلى الأعلى وقد تداخل اللون الأزرق مع بشرته البيضاء كأنها كدمات إثر تعذيب شديد! كانت عيناه مليئة بالذعر، كأنه رأى شَيئاً بشعاً لم يستطع مقاومته فسقط قتيلا، لا أعرف تدبر كلمات تفسر ما رأيته عليه حينها، لا أستطيع تكوين رؤية كاملة أو حتى بسيطة تجاه موت سيف، الطب الشرعي كذلك لم يتوصل أي فرد منهم لتفسير سبب الوفاة إلى الآن، فكيف لي أن أفسر وأصف!

تذكرت أنني لا أملك معه سوى بعض الصور،غير نظارة القراءة تلك، لقد أصبح صديقي ذكرى فحسب.

حبست دمعي وأنا أجيب والدته أنني أنتظر بالأسفلٍ، مكثت لثوانٍ، فُتح بعدها باب البناية الحديدي، دخلت قاصداً المصعد في طريقي للدور الثامن حيث تسكن السيدة «وفاء» والدة سيف. عندما وصل المصعد إلى الدور الثامن وتركته خارجاً منه، وجدت السيدة وفاء تقف على باب شقتها تنتظرني، ألقيت عليها السلام فضمتني إليها باكية، أفهم ذلك الشعور جيداً، فهي ترى هيئة ورائحة وذكرى فلذة كبدها المتوفى، تتمثل بي، حاولت أن أتمالك نفسي وأسيطر على دمعي لئلا يسيل، ثم قبلت يدها ورأسها ودخلت خلفها إلى الشقة.

قالت:

_تعالَ إلى غرفة سيف، لقد سمحت الشرطة أن ندخلِ إليها بعد ما قُيدت الحادثة انتحارًا ليس أكثر، أريد أن أُطلعك

على شيء.

قامت بفتح أحد أدراج الكومود، وأخرجت منه ورقة، ثم استطردت حديثها:

_عندما أتاحت الشرطة الدخول إلى غرفة سيف كما ذكرت لك منذ قليل افتقدت ريحها، وهرولتُ لدخولها حتى أحتضن ملابسه وأشعر به معي، وعندما قمت بفتح خزانة ملابسه، وجدت هذه الورقة مخبأة داخل جيب سترته، فقرأتها، وأريد منك قراءتها.

بعد انتهاء السيدة وفاء من حديثها، لم يعد بوسعي المكوث طويلاً داخل غرفة سيف وهو غير متواجد بها ولا سبيل لعودته، كان قلبي يدمع في كل ثانية أثناء تواجدي داخلها، لذا اخترعت حُجة حتى يتسنى لي المغادرة، وقلتُ للسيدة وفاء:

_ سأقوم بالاطلاع على هذه الورقة فيما بعد.

كنت أريد قراءتها بفارغ الصبر، لكنني أريد قراءتها على انفراد، كما أنني وددت أن أعود إلى إسراءٍ حتى أطمئنّ عليها، غادرت وأنا أعتذر للسيدة وفاء واعداً إياها بزيارتها مرة أخرى قريباً للاطمئنان عليها، ثم قَبلتُ رأسها وغادرت متخذاً سيارتي للعودة إلى إسراء.

******

سيف

لقد أبعدني عنك، ذلك الذي يسكنني ويراقبني ولا يجعل لي سبيلاً لكي أحيا، لقد تملك مني؛ فكلما حاولت أن أتحدث إليك عَزلني عنك، بل وعَزلني عن كل العالم الحقيقي، أشعر كأنني تبدلت، لست أنا الذي أعرفه، كلماتي غير مرتبة ولا أعرف متى سيعاود الظهور مرة أخرى، فمنذ شهر كامل وأنا أحاول أن أصل إليك مراراً دون جدوى، اقرأ كلامي جيداً، ونفذ ما أقوله لك دون أن تنسى حرفاً واحداً، فهذه هي المرة الأولى التي يتركني فيها وحدي.

أنت تعلم جيداً كم أحببت اقتناء الأشياء الثمينة، كنت مولعًا بهذه الهواية، وهي الآن مصدر شقائي، منذ شهر تقريباً تجولت داخل سوق النظارات، ووقع نظري على تلك النظارة، فلم أتردد ثانية، وقررت اقتنائها، دلفتُ إلى البائع وسألته عن ثمنها وعندما أجابني ابتعتُها على الفور رغم ثمنها الباهظ، عُدت إلى المنزل فرحاً مسروراً، تركتها داخل درج الكومود، وقلت لنفسي، سأنامُ قليلاً أولاً، وتبدل كل شيء، لا أعرف أن أحدد ما حدث، وهل كان ما رأيته حلماً أم حقيقة!

منذ ذلك اليوم وأنا في مكان ما خارج حدود هذا العالم الذي نحيا به، هنالك لون واحد مسيطر على كل شيء وهو الأسود الداكن القاتم، معظم المخلوقات تشبه ذلك المسخ، هناك العديد منه في هيئته والكثير في هيئات مختلفة أكثر بشاعة، يسيطر الظلام على المكان، البيوت لا حياة فيها، تشبه القبور في وحشتها، الرائحة نتنة ومُقززة كرائحة الحيوانات

النافقة، لا طعام ولا شراب هنا سوى الدماء فقط، يمكنك أن تشتم رائحتها تفوح من كل الأرجاء والأروقة، وتشعر بأثر تذوقها دون أن تفعل، رائحة الموت هنا تسيطر على تلك البقعة من العالم الآخر الذي لا نعرفه، وهؤلاء المُسوخ هم القائمين عليه!

لقد رأيتُ جثثاً لا حصر لها، ملفوفة في أكفانٍ بيضاء، يتردد على مسامعي أنهم قرابين تلك اللعنة، اللّعنة التي تحصد أرواح الكثير ولا زالت مستمرة في فعلتها!

منذ ذلك اليوم كل فترة أرى نفسي مسجوناً داخل غرفتي، ثم أعود إلى ذاك العالم مرة أخرى، حينها لا يسمح لي ذلك المسخ بفعل أي شيء، أو لأحد أن يراني، حتى أمي، لم يكن له استثناء، تأتي وتطرق الباب، وعندما تيأس من أن يُفتَح لها الباب، تترك لي حاجتي من الطعام والشراب خارجه، يوماً تلو الآخر دون فائدة، تصرخ وتنادي باسمي، كان صوت نَحيبُها يمزق قلبي ولكنني لا أملك من نفسي شيئا، فأنا أصبحت خارج هذا العالم، أعلم أنني ربما مِتُ، ربما حبستُ، فهذا الذي يسكن الغرفة ليس أنا!

مر على هذا خمسة عشرة يوماً، ثم بدأ هذا المتمثل بي في ملاقاة أمي، كان يعيش حياتي ليُشعر كلٍ من هم حولي أنني موجود، لكنه منعك عني، أنت خصيصاً، فكلما كنت تتصل بي كان يتقمص صوت أمي ويجيب عليك، حتى يستطيع أن يفرق بيننا، فإذا سألت أمي عني قالت:

«أن سيف لا يريد مقابلتك فهو متعب ويريد أن ينفرد

بنفسه».

كان ذلك يحتل هيئتها وصوتها كما أتقن احتلال جسدي، فأنا أسير له، ولا أستطيع تعديل الوضع نهائياً، أتابع كمشاهدٍ لمباراة في كرة القدم، ولا أستطيع تغيير شيء داخل المَلعب، حتى لو كان هذا الملعب هو حياتي نفسها!

ومنذ أسبوع تقريباً، أي بعد خمسة عشر يوماً آخرين، شعرت أنني عدت إلى نفسي مجدداً، كما لو أنني فقدت الوعي، أو دخلت في غيبوبة طويلة، لذا أول ما قمت بفعله؛ أنني توضأت وصليت العشاء. حاولت أن أتصل بك، لكنني لم أجد هاتفيٍ، وكانت أمي خارج المنزل، لذا لم أستطع أن أتصل بها أيضاً، حينها سيطر عليّ شعور غريب كان يقودني لكي أقرأ، حاولت أن أقاومه، لكنني لم أستطع، فارتديت النظارة، وأخذت كتاباً جديداً لأقرأه، وشرعت في القراءة منهمكاً، لكن بعد مرور عدة دقائق بدأت أشعر أن هناك شيء ما يحدث حولي، ربما أحدهم يجول في الأرجاء، أستشعر أنفاسه وحركته جيداً، وظهر صوت داخل خزانة ملابسي، كان يتنفس بصعوبة بالغة، كما لو أنه يصارع الموت، أنفاسه ما بين شهيق وزفير؛ تنذر بأن روحه شارفت على مغادرة جسده، تمهلتُ في خطواتي، ثم ولجتُ صوب باب الخزانة، فبدا الصوت واضحاً، مددتُ يدي وقمت بسحب الباب ببطء، فرأيت نفسي؛ أنا الذي يصارع الموت!

صرخت كالمجاذيب وهرولتُ صوب باب الغرفة، حاولت أن أفتح الباب، لكنه كان مغلقًا بإحكام فلم أستطع فتحه، ولا

أعرف كيف ومتى أُغلق!

صرخت أكثر فأكثر ولم يسمعني أحد، ثم توقفت رغما عني، رأيت الذي كان أنا منذ ثوانٍ قليلة مضت، تحول إلى مسخ، أسود اللون كجثة متفحمة، كان يُشبه هيئتكَ، لكنه ظل، كل ما استطعت أًن أحددهُ؛ أن له عينين سوداويتين بالكامل تلمعان كبريق الفضة، قام من مرقده فتغيرت هيئته، فهو كالشياطين، يجعل القلب يتوقف حال رؤيته، نحيل وله ذراعين طويلين وساقين قصيرتين لا تناسب هيئته، يترنح في سيره وهو مُقدم علي، كان يقترب مني وأنا لا أملك من نفسي شيئا ، لا أعرف ماذا أفعل، ، حسبت أنني أحلم، خُيل لي أن أمي ستوقظني من سُبات عميق، لكنني كنت أتوهم، إنها الحقيقة، وما يحدث لي واقعاً فعلا وليس حلماً، لم أستطعٍ أن أثبِت أكثر من ذلك، لأنه حينها قد بلغني، فسقطت أرضاً فاقداً للوعي!

******

عمر

كنت أقرأ محتوى الرسالة التي تركها لي سيف مشدوهاً لا أستوعب مما قرأته شيئاً!

أجلس بجوار إسراء بعد ما انطلقت بسيارتي عائداً إليها، وقد غادرت منزل سيف حاملاً تلك الرسالة، التي أعطتني إياها والدته، بعد مقابلتي بها، كنت أُبادل إسراء نظرات الدهشة والحيرة ولا يملك كلانا أن ينطق لسانه بأية كلمة،

فقد بلغت الأحداث حاجز العقل والمنطق، كانت إسراء تحدق بأحد جدران الغرفة وتحك رأسها ووجهها من أثر الدهشة، بينما أنا نهضت من مجلسي، وأخذت أجوب الغرفة ذهاباً وإياباً في حيرة من أمري، تدور داخل رأسي أسئلة لا حصر لها ولا إجابات عليها، يتخلل داخلي الخوف مما هو قادم، ولا أملك طمأنة نفسي وطمأنتها.

رمقتني إسراء بنظرة تعجب مفاجئة وقالت تسألني:

_كيف حصلت على تلك النظارة إذاً؟

قلت:

_حصلت عليها عندما علمت بوفاة سيف، كانت مُلقاة على الأرض، التقطتها دون أن يراني أحد من أفراد الشرطة، خبأتها في جيبي ثم انصرفت على الفور، انتظري لحظة، هناك ما يدعو للعجب فعلا، لقد أخبرتني السيدة وفاء والدة سيف أنها قرأت هذه الرسالة وتعلم ما بها.

_ وما تأثير ذلك فيما يحدث؟

_اسمعي؛ إن للسيدات عاطفة جياشة، لا يستطيع ردعها أي شيء مهما كان، فإن كانت السيدة وفاء قد قرأت تلك الرسالة فعلاً فكان أولى بها أن تهرول إلى النيابة وتُعلم وكيل النيابة بها على الفور، هذا دليل قطعي أن سيف لم يمت منتحراً، عاطفة الأمومة كانت ستقودها لذلك، أنتِ سيدة، تتفهمينَ وتشعرين بما أريد قوله تحديداً.

إذاً؛ لو قمنا باستبعاد هذا التكهن ونَحَينا العاطفة جانباً،

وحكمنا العقل والمنطق؛ فالحاصل على دليل يبرئ شخصاً ما من جريمة اشتبه بها أياً كان من هو، حتى لو لم تكن بينهم أي صلة معرفة، سيذهب على الفور إلى من يملك المساعدة ويقدمه له دون تفكير، يأخذنا ذلك التحليل إلى شيء هام وجنوني، يثبت أننا نواجه ما لا نستطيع إدراكه، فأنا لم أقابل والدة سيف، ومن أعطاني الرسالة لم تكن هي!

هناك شيء أكبر من تخيلنا يعبث بنا، يلاحقنا، يعرفنا حد المعرفة، متقمص ماهر، هذا ليس بشرًا كما قال سيف، أو كما قال هو نفسه عن نفسه!

قالت إسراء وقد احتلت الرهبة ملامحها:

_رجاءً تمهل، أنا لا أفهم شيئاً مما تقول، اشرح لي الأمر من البداية حتى يدرك عقلي ما يدور بذهنك.

تنهدت، وأخذت نفساً عميقاً، وأشعلت سيجارة ثم قلت لها:

_سأقوم بترتيب الأحداث لكِ من البداية فأنصتي جيداً؛علمت بموت سيف منتحراً، فذهبتُ إلى منزله واستطعت أن أدخل غرفته، وعندما رآني أحد أفراد الشرطة أشار لي بمغادرتها، ثم قام أحدهم بالنداء عليه فذهب مُلبياُ لندائه، أدركت شيئا تحت قدمي، فوجدت النظارة ملقاة على الأرض أو بالأحرى أسفل السرير ولم تكن ظاهرة بالكامل، التقطتها كما أخبرتكِ وغادرت الغرفة سريعاً قبل عودة فرد الشرطة، بل وغادرت

المنزل بأكمله، ثم حدث ما حدث منذ وجودها معي، ما أدركنا جميعاً من أشياء غريبة لا توافق عقولنا، ظننته قاتلًا محترفًا ولكن خاب ظني، هذا ليس قاتلاً بشرياً، بل قاتل من سكان عالم لا نعرفه، إنها لعنة حلت بنا، ربما يدهشكِ ما أقول، ويُدهشني كذلك ولكنها الحقيقة، فذلك الشيء ربما هو الذي نادى على فرد الشرطة، ليسهل لي الأمر بالتقاط النظارة، وهو الذي قابلني وأعطاني تلك الرسالة، وهو يعرف كل المعرفة أن النظارة ملكي الآن، فكتب لي أن لا أرتديها حتى يضللني عن معرفة الحقيقة، بل إنه يعرف أنني ارتديتها بالفعل، فتقمص هيئة السيدة وفاء والدة سيف حتى لا أشك في الأمر، لم تكن هي بل هو!

سأخبركِ بشيء إضافي، انظري إلى ذلك الخط الذي كُتبت به الرسالة؛ هذا ليس خط سيف، فخط سيف أسوأ من هذا بكثير، فإن كان سيف يكتب لي رسالة بهذا الإحساس المخيف الكائن بداخله ويحيط به، لم يكن ليكتب بخطٍ متناسق ومرتب لهذه الدرجة، من يشعر بالخوف يشعر بالارتجاف والارتباك، لا يتقن حتى نطق الكلمات بطريقة صحيحة، فكيف له أن يكتب بمثل هذا الإتقان!

وهذا يؤكد أن كاتب الرسالة ليس سيف، إنما شخص ما غيره، أو بالأحرى شبح ما، ربما يريد قتلنا جميعاً كما قتل سيف!

تيبسّت ملامح إسراء فرأيتها كالموتى من فرط الخوف، ترمقني بنظراتٍ تملؤها الأسئلة، صمتت لبرهة وقالت:

ـــومن هو؟

قُلت وقد أحاط بي اليأس:

ـــ لا أعرف، ربما شيطاناً أو نفر من الجن.

ثم أخرجتُ هاتفي من جيبي، وقمت بتفعيل مكبر الصوت متصلاً بالسيدة وفاء، لأسألها عن مقابلتي معها بشكل غير مباشر فأجابت تقول:

ـــكنت سأقوم بالاتصال بك حالاً لأُخبرك أنني اضطررت لمغادرة المنزل قبل موعدي معك بسبب مرض أختي المفاجئ، آسفة يا بني ومعذرة، فأنا لم أستطع أن أخبرك حينها، والآن أريد أن أخبرك شيئاً هاماً، عندما عُدت إلى المنزل بعدما اطمأننت على أختي، وجدت أحد أفراد الشرطة في انتظاري، ولقد غادر للتو، جاء ليُعلمني بالذهاب في الثامنة صباحاً إلى النيابة العامة لأوقع على محضر حفظ القضية، فلم تستدل النيابة على أية أدلة جنائية تدين أحد، أريد منك الذهاب معي في الصباح، سأنتظرك في تمام الثامنة عند النيابة العامة فلا تتأخر.

لم يكن بوسعي أن أتفوه بكلمة واحدة رداً على ما قالته لي السيدة وفاء، أغلقت المكالمة في شك مما سمعت وساد الصمت بيني وبين إسراء، كل منا يرمق الآخر بنظرات التعجب الشديد!

كسر هذا الصمت صوت اهتزاز هاتفي، وظهر اسم أمي على شاشته، وعندما قمت بالرد، كان صوتها يرتعش خوفاً:

ـ أين أنت؟ هناك شيء غريب يحدث الآن، بينما كنت أقوم بترتيب بعض الأشياء داخل المطبخ سمعت صوتك تتحدث في غرفتك، حسبت أنك رجعت وأنا نائمة، دلفتُ نحو باب غرفتك المغلق فسمعت الكثير من الجلبة تبعتها أصوات شهيق وزفير لأنفاسِ شخص يحتضر، طرقت الباب بعنف فتوقف صوت الأنفاس واختفى، فتحت الباب ودخلت إلى الغرفة، فوجدت شيئًا ما يشبهك يحمل جثة على يديه واختفى فجأة، أرجوكِ عُد سريعا، فأنا لا أعرف ماذا أفعل، ويرتجف قلبي خوفاً.

أجبتُها في ذعر:

ـ سأكون عندك في الحال، لا تقلقي، اقرئي ما تيسر من القرآن ولا تخافي من أي شيء مهما حدث، أنا قادم إليكِ.

هرولت في اتجاه الشارع ولحقت بي إسراء عند سيارتي ولم تتركني، قُدت بسرعة جنونية حتى وصلت بعد نصف ساعة إلى منزلي في منطقة «عابدين»، كنت أقود سيارتي كالمجذوب الذي فقد رشده، فتحت الباب بعنف ودخلت مسرعاً إلى الشقة لأجد أمي تجلس أمام التلفاز وهي في وادٍ آخر، وحينها رمقت كلانا أنا وإسراء بنظرات تعجب وهي تقول:

ـما بكما؟ ألا يزال الخلاف مستمرًا بينكما إلى الآن؟ حسبت أنه زال وتم الصلح بينكما! لقد تأخر الوقت فلماذا أحضرت إسراء معك؟ وما سر دخولك بهذا الخوف والعنف!

لم يكن باستطاعتي التقاط أنفاسي، فقلتُ لها بصوت

مُتهدج:

_ لا شيء، عندما سمعت صوتكِ عبر الهاتف ،ظننت أنكِ لست على ما يرام ، فجئتُ مسرعَاً وتبعتني إسراء.

قالت أمي مستنكرة :

_لم أتصل بك هاتفياً اليوم مطلقاً منذ أن غادرت المنزل!

لا أعرف ما الذي أصابك وما حل بك، لقد تغيرت كثيراً يا عمر وعليك أن تعود إلى نفسك مجدداً.

وقبل أن أقول شيئاً؛ سبقتني إسراء وهي تقول لأمي:

_ هذه المرة يا أمي عمر لم يُهذِ ولم يتخيل، هناك شيء ما لا يصدقه عقل يحدث ويعبثُ بنَا، كنت بجانب عمر عند مكالمتك معه وهذا ما دفعني إلى المجيء معه وألا أتركه يعود وحده.

بعد ما أنهت إسراء حديثها، قصصتُ على أمي كل ما حدث من أشياءٍ لا يستوعبها عقل، وعن وجود شيء ما يتقمص الأدوار ويريدنا أن نفقد عقولنا، وفي نهاية الحديث، أضفت أنني سأترك المنزل الليلة حتى تبيت إسراء مع أمي، وفي الصباح سأعود وأصطحبُ إسراء معي إلى النيابة العامة ومنها إلى سوق النظارات، ربما نصل إلى شيءٍ ما يرشدنا ويفسر ما يحدث لنا .

أنهيت حديثي،ثم ذهبت مغادراً للمنزل قاصداً منزل أحد أصدقاء الحي الذي أسكن به.

******

الفصل الثاني

«شر اللعنة»

عمر

في منزل صديق الحي، مكثت داخل الغرفة التي نتشارك بها معًا؛ أفكر، أنظر إليه، أحسدهُ لأنه يستطيع النوم بينما يقتلني الأرق والتفكير فيما يحدث لي!

ظللت أفكر ولم أستطع النوم طوال الليل، حتى داعبت أشعة الشمس عينيّ، الساعة دقت السادسة، فهممتُ بإيقاظ صديقي حتى يجعلني أمُر إلى الخارج، نظر إليّ بنصف عين وهو يتثاءب، فشعرتُ أنه بالكاد يتذكرني، خرج وغابَ لدقائق معدودة، ثم صاح ينادي عليّ أن أمُر، ودعته، وعندما وصلت إلى الشارع رن هاتفي وكانت إسراء تخبرني أنها على أتم استعدادا للخروج، وتنتظر أن أذهب إليها حتى لا نتأخر عن موعدنا مع والدة سيف، أغلقت الخط معها، واتصلتُ بوالدة سيف، طلبتُ منها أن تبحث عن فاتورة شراء النظارة قبل أن تغادر المنزل، من المؤكد أن سيف عندما ابتاعها حصل على فاتورة شراء، أخبرتني أن لا وجود لأي فواتير عندها، وأنها ستصل إلى النيابة العامة خلال ساعة، شكرتها وكنت قد وصلت إلى منزلي ووجدت إسراء تنتظرني في شرفة غرفتي، اتصلت بها طالبًا منها أن تُحضر معها النظارة،

فقالت أنها تتذكر ذلك جيداً، ثم توارت عن نظري ودخلت إلى الغرفة، انتظرت ربع ساعة ووجدت إسراء أمامي في الشارع تمُد يدها لي بالنظارة ومعها ورقة «فاتورة»!

أخذتها منها ونظرت إلى محتواها فوجدتها فاتورة شراء النظارة التي ابتاعها سيف!

أصابتني حينها صدمة، كأنما قام أحدهم بطرق رأسي بآلة حادة! تسللت دهشتي إلى نظرات إسراء، فسألتني في تردد:

_ماذا بك؟

أجبتُ وأنا في حالة من عدم الاستيعاب:

_ أين وجدت هذه الفاتورة؟

قالت:

_داخل درج مكتبك مع النظارة، ما الغريب في ذلك يا عمر؟

تنهدتُ قليلاً، وفركتُ لحيتي وجبيني، ثم قلتُ بسخرية:

_ الأمر بسيط للغاية؛ أن هذه الفاتورة لم يكن لها وجود طيلة الفترة الماضية، وبين ليلة وضُحاها تظهر بغرفتي، وداخل درج مكتبي، إنه بالفعل أمر بسيط للغاية ولا تشوبه شائبة، هذا أشبه بالجنون يا إسراء!

لم تتبُس إسراء ببنت شفة، كأنها فقدت النطق، أشرتُ لها أن تنسى ذلك الأمر وتتبعُني إلى داخل السيارة، حتى نغادر سريعًا كي لا نتأخر عن موعدنا.

في تمام الثامنة؛ كانت والدة سيف تنتظرني، نزلت من السيارة وإسِراء خلفي، وبعد التحيات والمُصافحات بين ثلاثتنا، باغَتتني والدة سيف، إذ أخرِجت من حقيبة يدها ورقة وأعطتني إياها، قرأتها، فاحتلَ الوُجوم ملامحي؛ إذ أنني وجدها فاتورة شراء النظارة!

كانت نسخة طبق الأصل من الفاتورة التي أعطتني إسراء إياها منذ قليل، لا يوجد بينهما أي اختلاف، حتى نفس الخط، ونفس العلامات، حتى ذلك الخط الذي ينتج عن سحبة القلم لإغلاق الفاتورة من قِبل البائع، هو! هو بنفس الطريقة والحجم!

قالت والدة سيف:

_لقد وجدتها تختبئ داخل أحد كُتب سيف بالصدفة، كنت آخذ نظارته الشمسية من درج الكُومود الخاص به، فوجدتها.

ثم استطردت تسألني:

_لماذا ارتسم الوجوم على ملامحك هكذا؟

حاولت أن أتَدارك الأمر، فتبسمت لها وقُلتُ:

_ لا شيء، علينا أن نصعد إلى الأعلى، فلابد ألا نتأخر أكثر من ذلك.

بعد حوالي ساعتين أو أكثر قليلاً، قضينا معظمها في الانتظار والصمت والتوقيعات والقليل من الكلام عن ماهية الحادث، حُفظت القضية من قبل النيابة العامة لعدم وجود أي دليل يُدين أحدهم بقتل سيف، إذ أنهم اعتبروا الحادث

قتل نفس لا أكثر، وكان لهم قولين:

الأول؛ وهذا الاحتمال الأضعف: أن الموت حدث جراء تناول سيف لسُم «الرايسين» أو ‘الريسين» مما أدى لوفاته، وهذا نتاج ما بدا على لون بشرته، عندما تداخل الأزرق مع لون ملامحه البيضاء.

القول الثاني؛ وهذا هو المُرجح: ربما لم يكن سُمًا، بل كانت الوفاة إثر صدمة كبيرة مفاجئة، أدت بعد ذلك لأزمة قلبية أو تنفسية أنهت حياته.

هذان القولان هما استنادًا لما آلت له آراء الطب الشرعي، حيث وجدوا سيف ميتًا وقلبه ورئتيه توقفوا عن عملهم فجأة.

هذا كان كل شيء من قبل النيابة، لكنه كان عكس ما يدور بداخلي، لازال خطب ما يقول لي أن هناك ما يدعو للارتياب، مات سيف بهذه الطريقة وعلى هذه الحال الذي يدعو للخوف والذعر، وما يحدث حولي ولي من ذلك الشيء الذي يعبث معي، هذا الذي لا يعلمه أفراد التحقيق، وحتى إن قصصت عليهم ما يدور لن يصدقونني، بل ربما يزُجوا بي داخل إحدى المصحات النفسية.

بعدما أنهينا ذلك التحقيق، ودعنا والدة سيف، واصطحبتُ إسراء معي إلى عنوان متجر النظارات المُدون داخل الفاتورة، وبما أن سوق النظارات يتواجد في عابدين، فكان لي أن أصل له بسهولة بالغة نظراً لأنني من أهالي الحي وأحفظهُ عن ظهر قلب.

******

إسراء

كنتُ بصحبة عمر في طريقنا إلى متجر النظارات الكائن في حي عابدين، جلستُ بجانبه داخل سيارته أفكر؛ هل أقص عليه ما حدث لي وشاهدته ليلة أمس أم ألتزم الصمت؟ كان في حالٍ لا يحسد عليه، قلبه وعقله لا مكان بهما لتحمل المزيد من الذعر والخوف، كنت أنظر إليه وأفكر بعمق وهو ناظر أمامه، يركز في القيادة والطريق، وحينها قال دون أن يلتفت إليّ:

_أعرفكِ جيداً يا إسراء عندما تريدين أن تقولي شيء وعقلك يرفض أن يبوح بما يدور داخله، تحدثي ولا تحملي همًّا، أنا معكِ دائماً.

كلمات عمر دفعتني للحديث، ربما هذا الدافع كان نتاج ما أشعر به من خوف علىٍ حياة عمر أكثر من خوفي مما رأيت ليلة أمس، تنهدتُ قليلاً، واعتدلتُ داخل مقعدي، ثم نظرت إليه مباشرة وقلتُ:

لا أعرف كيف أبدأ تحديداً، لكنني لن أُخفي عليك شيئًا، بعد أن غادرتَ ليلة أمس، مكثتُ مع والدتك نتبادل أطراف الحديث قليلاً، ثم تمكن منها النُعاس، فذهبت إلى غرفتها للنوم، وبقيت أنا على الأريكة أجلس وحيدة أتابع التلفاز دون تركيز، كان الأرق يحتل عينيّ، والتفكير ينهش عقلي فيما يحدث وفيما هو قادم، حينها سمعت صوتًا يأتي من داخل غرفتك، كأنما هناك شخص يتجول بداخلها، أصوات أقدام تحتكَ بأرضية غرفتك، تبعها صوت طرق على الخشب،

كأن هذا الشخص قام بالطرق على مكتبك، تبعه صوت درجِ المكتب وهو يفتح، أنت تعلم أنه يُصدر صوتًا مميزاً مُزعجاً عندما يُفتح، كنت في هذا الحين لا أقوى على الحراك من موضعي، حينها ارتجف جسدي، وكنت ابتلع ريقي بشق الأنفس وبالكاد ألتقطُ أنفاسي، صوت نبضات قلبي من الخوف كان يلهب الصمت ويخترقهُ كما تأكل النار القش، غاب صوت الأقدام فجأة وبعد ثوانٍ معدودة، عاد من جديد ليظهر صداه داخل غرفتك، كان بابها غير مغلق بالكامل، فكنت أرى ربع مساحتها تقريباً، بدا صوت الأقدام يقترب من مسامعي، حتى توقف عند الباب مباشرة كأنه خلفه، ليظهر على الحائط خيالٍ لشيء ما، حسبته خيالاً، ولكنِ خاب ظني، هذا كان كائن أسود داكن اللون، يشبه هيئتكَ تماماً، له نفس تكوينك الجسدي، طول قامتك، لكنه خيالاً، ظلاً وليس له تكوين مادي، شعرتُ حينها أنني ربما أحلم أو يُخيل لي، أو ربما مِتُ! جسدي كان مُكبلًا بالكامل، لا أشعر به نهائياً، فقط كل ما أستطيع فعله هو أنني أشاهد هذا الذي لا أعرف له مسمى أمامي!

لم يكن هذا فحسب، فجأة، تغيرت ملامحه وهيئتهُ، وأصبح شكله مرعبًا، مخيفًا، بشعًا إلى أبعد درجة، ظل على كونه خيالاً؛ وتحول إلى شيء نحيل الجسد، بعينين سوداويتين لامعتين، وجههُ أسود متفحم، له ذراعين طويلين وساقين قصيرتين للغاية!

ظل أمامي لدقيقة أو نحو ذلك، ثم عاد مرة أخرى من حيث أتى من داخل غرفتك، خرج صوتي بالصراخ من أعماقي دون

أن أشعر، فوجدت والدتك تهرول خائفة مذعورة تجاهي، تستعيذ باللّه من الشيطان بصوتٍ عالٍ، ألقت بنفسها بجانبي، وأخذتني بين ذراعيها واحتضنتني بحنو بالغ، فاطمئن قلبي قليلاً، وهدأ روعي، بينما كان جسدي لازال يرتجف قليلاً رغماً عني، ظل هذا الشعور لدقيقة أو نحو ذلك، ثم غبت عن الوعي بين ذراعيها.

استيقظت على صوتها يرتعد وهي تنادي باسمي، وَكزتني بيدٍ ترتعش، ففتحتُ عيني بصعوبة مستغربة من هذا الفعل، ودون أن تترك لي هي أي ردة فعل أخرى، أشارت بسبابتها نحو غرفتك.

نظرت بسرعة ناحية ما أشارت إليه والدتك، فوجدت أن الباب غير مغلق بالكامل كما ذي قبل، يظهر سريرك أمام رؤيتنا مباشرة، وفوقه جثة! جثة لشخص مُكفن بالأبيض استعدادًا للدفن، كان جثمانه مُمددًا فهو كالموتى، أو بالأحرى ظننا ذلك، لأنه تحرك واعتدل من وضع النوم إلى وضع الجلوس بزاوية قائمة! حرك رأسه ببطء شديد، فرأينا ملامحه، قطعتين من القطن كل قطعة منهما تسد فتحة من فتحتي أنفه الأفطس، بشرته زرقاء داكنة مائلة للحمرة، نظر إلينا بعينين جاحظتين، يشع منهما الشر، كأنهما عيني شيطان!

لم نستطع الحراك، حُبسَ صوتنا، وتجمدت الدماء بداخلنا، ثم تحركت جثة ذلك المسخ وقامت من على السرير ودنتْ صوب الجزء الذي لا نستطيع رؤيته داخل غرفتك، لا

أعرف بعدها ماذا حدث لي وأي نوع من الجنون سيطر على عقلي، حتى ألقي بنفسي وأقوم مُسرعة في اتجاه غرفتك، فتحت الباب على مصراعيه، ودخلت إلى الغرفة، فوجدت درج مكتبك مفتوحًا وبداخله النظارة وتحتها الفاتورة التي أعطيتها لك، بعد ذلك عُدت إلى والدتك، فرأيتها ترتعد فرائصها، ضممتُها إليّ، ورغم خوفي، وعدتها أن هذا سينتهي قريباً، ثم اتصلت بك بعد أن هدأتها.

******

عمر

أنهت إسراء حديثها ولم يفاجئني كثيراً، هذا بجُملة الأشياء العجيبة والغريبة التي تحدث ولا أجد لها تفسيرا، فما مرت به إسراء لا يضاهي ما أشعر به، لقد رأيت ما تحدثت عنه أيضاً مسبقاً، ولكن تلك الجثة كانت أنا!

كنت شاردًا؛ أقول هذا في نفسي، بينما صوت إسراء جعلني أعود بذهني إليها من جديد عندما ارتفعت نبرة صوتها تنادي باسمي:

_عمر أنت معي؟ هل تسمعني أم أنك شارد الذهن؟

ابتسمت لها، وربتتُ على كفها الصغير بيدي اليمني، ثم قلت:

_ لقد وصلنا، سنترك السيارة هنا ونمشي قليلاً حتى نصل إلى متجر النظارات.

تركنا السيارة في أحد المرائب، مشينا قليلاً داخل السوق

حتى وصلنا إلى المتجر الذي نريده، كان المتجر ضخماً تنم هيئته على أنه ربما أكبر متاجر السوق، صعدنا درج السلم المؤدي إلى باب المتجر ومن ثم إلى داخله، قابلنا أحد البائعين بابتسامة ترحاب وعرض المساعدة، أخرجت من جيبي فاتورة شراء النظارة، وقلت:

_ أريد مقابلة مدير هذا المكان، ابتاع صديقي هذه النظارة منذ مدة وحدث له شيء مروع، وإن لم أستطع مقابلة المدير، سأحول الأمر إلى الشرطة.

ابتسم العامل بهدوء وأخبرني أن أستريح، نادى على أحدهم طالباً منه أن يُحضر لنا مشروبًا للضيافة، والتفت إلينا، ثم تابع وهو يقول:

_لا تقلق يا سيدي الفاضل، كل شيء سيكون بخير، سأذهب الآن وأخبر السيد (أحمد) مدير المتجر بما طلبته.

غاب ذلك العامل المهذب عنيٍ وصعد للطابق الثاني من المتجر، وعاد بعد دقيقة مبتسماً وهو يقول:

_السيد أحمد ينتظركما بمكتبه يا سيدي، دعني أُرشدكما إليه.

تقدم العامل أمامنا وصعدنا نتبعه إلى الطابق الثاني من المتجر، ليقف أمام باب غرفة مفتوح ربعهُ، طرق الباب ثم فتحه بالكامل وهو يقول:

_تفضلا.

دخلنا إلى الغرفة، وأغلق العامل الباب وانصرف، وكان أمامنا مكتب فخم، يجلس عليه رجل بشوش الملامح، مستدير الوجه، يبدو في منتصف الأربعين من عمره، له ابتسامة لا تقل ذوقاً عن عامله وقال:

_أهلا بكما، تشرفت بحضوركما كثيراً، أخبرني (سيد)، أن لحضرتك طلباً، أنا في خدمتك الآن.

طُرق الباب، وكان العامل سيد ومعه العصير، وضعه أمامنا وانصرف، أخرجت النظارة من جيبي ووضعتها على المكتب مع فاتورة الشراء، ثم تنهدت قائلاً:

_ سيدي، لقد أحسنت استقبالنا، لذلك سأكون صريحاً معك، ابتاع صديقي المقرب (سيف) تلك النظارة من متجركم منذ مدة، وفي نفس اليوم الذي ابتاعها فيه، وافته المنية، ورحل عن عالمنا، وجدوه مقتولاً داخل غرفته، حققت الشرطة في الأمر ولم يتوصلوا لأي شيء، حفظت القضية لحين إشعار آخر كونها انتحارًا، لكن ثمة شيء بداخلي يرفض الاعتراف أنه انتحر، أعرفه حق المعرفة، لا يمكن لسيف أن يفعل مثل هذا أبداً، انتقلت النظارة إلي بطريقة ما، ومن بعدها بدأت أشياء لا يصدقها عقل في الظهور، أعلم أن لسان حالك يقول أنني مجذوب، أو مختل عقلياً، لكن خطيبتي إسراء تعلم كل ذلك، وقد رأت وعاشت من الرعب والجنون مثلي تماماً، جاءت معي لتثبت كلامي وهي شاهدة عليه، لا أعرف اختيار الكلمات والسياق الصحيح للحديث، لقد دُمرت نفسيتي، وهلكت أعصابي، فقدت

صديقي المقرب، ولا أريد أن أفقد عزيزًا آخر، لذا أرجوك أخبرني بسر هذه النظارة.

فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منه بضع نظارات مختلفٌ أشكالها، ثم وضعها أمامي على المكتب وهو يقول:

_أتفهم ما تشعر به يا سيدي، نحن واحد من ثلاث متاجر بالسوق كله نمتلك بيع النظارات الأنتيكة، موثوق بنا، وعلى مدار عشرين سنة لي في هذا المجال وخمسين سنة من بداية تأسيسٍ هذا المتجِر لم أسمع أنا أو غيري عن مثل ما تحدثت به أبداً، لا أكذبكَ معاذ اللّٰه، لكن هذا الفعل غريب جداً، لم يُسمع به من قبل، هذا ليس بفعل النظارة أبداً، تحدثت عن أشياء غريبة، ولا علم لي بها، ربما عليك أن تتبعِ هذا الخيط، وربما أحدهم استغل هذه النظارة حتى يخدعكَ، أوٍ ربما استغلها بطريقة أخرى لقتل صديقك، لا أعرف صراحةً ما هو القول المناسب، ولكن لا بد أن تتبع هذا.

فهمت أن الكلام لن يفيد، شكرته على حسن أخلاقه وأخذت النظارة والفاتورة ووضعتهما في جيبي مجدداً، انصرفت وإسراء تتبعني، وأنا أعلم أن هذا المدير يقول في نفسه أنني مجذوب، لكن لا يهم، كلامه كان صحيحاً واعتقاده أيضاً، أي عاقل يصدق ما أقول؟ أنا نفسي لا أصدق ما يحدث، ما قلتهُ، وما يحدث لي، لا خيار أمامي سوى أن أتبع هذا الجنون، لربما أكتشف اللغز أو ألقى نفس مصير سيف.

في هذه اللحظة عدنا إلى السيارة، تحركنا وسألت إسراء:

_ ما هذا الصمت الذي حل بكِ فجأة؟ كأنكِ فقدتِ النطق، أو كنتي مغيبة! لم ينطق لسانكِ بكلمة منذَ أن دَخلنا إلى المتجر حتى الآن، ماذا بكِ؟

ارتبكت، كان جسدها ينتقض، عيناها زائغتان، بدت ملامحها شاحبة، وقالت بصوتٍ يرتعد:

_كان هناك، كان معنا، لقد رأيته، كأنه يتتبعنا! لا؛ كان معنا فعلاً، داخل ردهة المتجر ومكتب المدير، حاولت أن أنبهك، كنت أصرخ ولا أستطيع إخراج صوتي، تيبس جسدي كالموتى، شعرتُ بأصفادٍ تكبل جسدي، تلاشت فقط عندما رأيتك تقوم من مجلسك وتفتح الباب لنُغادر، لكن لم يكن باستطاعتي التحكم في صوتي، كنت مثلما قلت؛ فاقدة للنطق، لساني معقود، ولا أستطيع التحدث، حتى سألتني، في هذه اللحظة فقط خرج صوتي، عمر؛ أنا خائفة، قلبي غير مطمئنٍ، لا أعرف ماهية ما نواجه، إنه لشيء فائقٌ للطبيعة، حلَ علينا من عالم الجن لا محالة، أرجوك لا تتبعه، عليك نسيان ذلك، فأنا أخاف أن أفقدك.

أوقفت السيارة فجأة بعد حديثها، شعرت أنني لا أملك للحظة التحكم بقدميّ، آلمتني معدتي، ذلك الإحساس الناتج عن الخوف، أحسست أن هناك ضيق شديد وحمل على قلبي، فقلت:

_ لقد أصبتِ القول، أشعر كأنني لست أنا، أشعر أن هناك شيئًا بشعًا سيَحدث، علينا أن نبتعد فعلاً، حتى لا نخسر أنفسنا.

كان هناك (متجر بقالة) صغير يقطن الرصيف، نزلت إسراء وقالت سأحضر شيئًا نشربه، وكانت تختار ما سنشرب، أخرجت النظارة من جيبي، وهاتفٌ ما بداخلي يهمس بأذنيّ ويقول ضعها على عينيك، انظر من خلالها على العالم الذي يجبرك شغفك على رؤيته، لم أستطع منع نفسي؛ وضعت النظارة على عينيّ، ورأيت أمي داخل المنزل تخطو نحو باب الشقة لتلبي نداء طارقٍ يدق الجرس، وعندما فتحت الباب، كان هذا الطارق أنا! وعندما دخلت إلى الشقة، تحولت إلى المسخ ذي العينين السوداويتين اللامعتين، صرخت أمي، قبضت بيدي على عنقها، كانت تقاوم بشدة، تقاوم شخصًا ما يحاول خَنقها، لكنَ قواها خارت بسرعة، وسقطت أرضاً!

كانت في هذه اللحظة إسراء قد عادت إلى داخل السيارة وأغلقت الباب، ودون استيعاب مني، دهستُ بقدمي وبكامل قوتي أعلى مكبحْ السرعة، وانطلقت دو أن أبالي، إسراء بجانبي تصرخ وتسألني ماذا حل بي وأي جنون أصابني، وأنا لا أبالي بعويلها، أسابق الزمن، أتحرك بسيارتي بين السيارات كالثعبان في الرمال، وبعد خمس دقائق وصلت إلى البيت، انطلقت مسرعاً مغادراً للسيارة تاركاً إياها في عرض الشارع، وصعدت السلم كعداء، ودخلت الشقة كمقتحم، حينها وقفت مصدوماً، وتيبس جسدي في موضعه، وضعتَ كفيّ على رأسي حسرة على ما رأيت؛ إذ وجدت أمي مرتمية يفترش جسدها الأرض، عيناها جاحظتان من الخوف، نظرها مصوب نحو السقف، وجهها متلون بالأزرقِ الداكن المختلط مع بشرتها القمحي، لحقتني إسراء وأيقظني من

غفلتي صوت صراخها عندما رأت أمي على هذه الحال، ارتميتُ إلى الأرض جانبها ، وضَمَمتُهَا إلى صدري وأنا أصرخ:

_سامحيني يا أمي، أنا سبب كل هذا ، أنا من أودى بكِ إلى الهلاك والموت، سامحيني أرجوكِ، لقد تأخرت كثيراً ، لقد تأخرت عنك يا أمي ولم أستطع إنَقاذكِ!

صرخت بكل ما أوتيت من قوة ، حتى تجمع الجيران بداخل الشقة، كل ما أتذكره بعد هذا أنني فقدت الوعي من البكاء، وفقدت أمي قبله.

******

الفصل الثالث

«طريق الشيطان»

إسراء

كان عمر بعد حادث فقد والدته في حالة يرثى لها، لا يحادث أحدًا، بالكاد يأكل، يدخن بشراهة، يشرب الكثير من الشاي والقهوة، شارد الذهن دائماً، ينظر إلى سقف غرفته يتأمله بعمق وهو ينفث دخان سجائره بعنف، كأنه انعزل في عالم آخر.

أسبوعِ مَر على هذه الحال، حتى وصل سوء حالته إلى أنه لم يتلقَ واجب عزاء والدته، يأتي الناس واحداً تلو الآخر فيرفض لقائهم، يدخلون عليه غرفته، ويتحدثون إليه ولا يرد كما ذكرت، أمست ملامحه باهتةً، ووجهه شاحبًا يميل إلى الصفرة، هزل جسده، وخرجت عيناه من تجويفها، ترى مُقلتيه بارزتين من الضعف، يدهُ ترتعش كلما حركها تجاه فمه ليلتقط قبلة من سيجارته الملعونة، يعيد يده بجانبه أو أعلى صدره، حتى يكرر نفس الفعل مرة أخرى، لا أسمع صوته مطلقاً إلا عندما يطلب القهوة، أو إرسال أحدهم لشراء السجائر له، وبرغم غرابة حال عمر، إلا أن هناك ما أدهشني أكثر، لم تأت والدة سيف لأداء واجب العزاء، بلٍ لم تتصل هاتفياً حتىَ! وهو ما كان يترك في نفسي سؤالا

وتعجباً؛ لماذا اختفت؟ أو أين هي!

بعد مرور الأسبوع، انتهت مراسم العزاء، والزيارات كذلك، حينها ساء حال عمر أكثر فأكثر، تكلمٍ بشكل أكبر وهو يصيح بوجهي بغضب كي أتركه وشأنه وحيداً وأن أعود أدراجي إلى منزلي، أخرجَ خاتم خطبتي من إصبعه واضعاً إياه فوق سطح المكتب، وأردف يقول:

_انتهى كل شيء بيننا، لا أريد أن أراكِ قتيلة، لقد سئمت رؤية القتلى، بل سئمت الأحياء ونفسي، حياتكِ الآن ملك لكِ وأنا خارجها، كوني بخير، ولا تذكريني مطلقاً.

ترقرقَ الدمع في عيني، آلمت كلماته نفسي، وأحسست أنني لا شيء، كأنه غرس خنجراً داخل قلبي، لم أستطع كبح غضبي، فلكمته بقبضتيّ في صدره، وذهبت مسرعة إلى خارج الشقة ومنها إلى منزلي وأنا أبكي، كنت أبكي بجنون، ألوم نفسي متسائلة:

_ بعد أن مكثتِ طيلة ذاك الوقت بجانبه، آتي إليه صباحاً وأغادرهُ مساءً، لأُلبي ما يحتاجه وأخدمهُ، يكون هذا هو رد فعله! بعد كل ما تحملته من أجله؟ بعد كل هذه المواقف التي وقفت من خلالها بجانبه يكون هذا رد الإحسان!

تمتمتُ بالاستغفار، وطلبت عون الله كي يريح قلبي المحطم، حينها خطر إلى ذهني أن هذا الذي ظهر عليه عمر ليس هو إلا إنسان متعب، محطم، فقد عزيزين في غضون القليل من الوقت، لم يفِق من صدمته الأولى حتى

تلقى صدمة جديدة تفوقها أضعافاً، مات صديقه، ثم فقد نفسه عندما كان شاهداً على مصرع والدته أمام عينيه، يخاف أن يفقدني كذلك، أنا الآن أتفهم هذا، أتفهم ما بَدَرَ منه تجاهي، ألتمس له العذر، فهو منهك، معتل، جراحهُ ما زالت تنزف، لا ضمادات تستطيع منع دماء الحزن المتدفق من قلبه، يحتاجني أكثر من أي وقت مضى، نعم يحتاجني ولا بد أن أكون بجانبه، أعلم أنه يحبني، دون الحب ما كان له أن يتصرف معي هكذا، يحز في نفسي غلظة قلبه، لكنني أعلم أن هذا ليس إلا أمراً طارئًا عليه، يصطنعه حتى يبعدني عنه، فلا يرى فيّ مكروهاً يؤلمه، علي أن اتحلىَ بالهدوء، عليّ أن أكون داعمة له وبجانبه.

******

عمر

كانٍ مشهد خروج إسراء من منزلي باكية يترك في نفسي أثراً سيئاً، انفث دخان سيجارتي وأنا أختنق ضيقاً مما اقترفتُ في حقها، لكنني لا أملك من نفسي شيئاً، أصبحت أمام خيار واحد فقط؛ هو فراقها، فاخترت فراقاً أقل حزناً، قررت أن أتركها على أن تكون معي وتموت، لا أريد أن أكون أنانياً، أفضل أن يتمزق قلبي من البعد ولا يتمزق بموتٍ جديد، ستمر الأيام، وليتكفل الزمن بمهمة النسيان.

أما أنا؛ سأحاول أن أعبر ما حدث، والمُضي في طريق جديد لا أعرف نفسي فيه، لا بد أن أغير كل شيء، لا بد أن أنسى، لكن حتى وإن نسي المرء منا كل شيء حتى نفسه،

فكيف له نسيان أمه؟، تلك التي لا شيء يضاهي حبها ومكانتها في قلب كل شخص منا، آهٍ لو أنني أفقد الذاكرة الآن!

آه يا أمي، رحلتِ وتركتِ ولدك حزيناً، تعساً، بائساً، متعًبًا، يُهلكه ألم الَفراق كَوحشٍ يلتهم قلبه، كيف السبيل لنسيان كل هذا التعب، أين المفرً من الذكريات، كيف أنسى أنني الذي أنزلتك إلى القبر بنفسي، كم كنت أتمنى ألا تأتِ هذه اللحظة أبداً.

الدموع لا تطفئ نار الأحزان مُطلقاً، حتى وإن بكيت دماً، لن يجعلني هذ أعبر الألم، ما يصبر قلبي هو يقيني بأن هناك لقاء قريب، وإلى أن يحين موعد هذا اللقاء سامحيني يا أمي حتى أستطيع لقائكِ في الحياة الآخرة.

كانت الدموع تفيض من عِيني كنهرِ جاري، أدخن سيجارة تلو الأخرى وأنا أبكي كالثَكالى، تمُر الذكريات والمواقف أمام عيني كأنها وليدة اللحظة، تارة أحزن وتارة أبتسم، حينها اتخذت قراري بعرض الشقة للبيع، فأنا لم أعدِ أحتمل العيش فيها دون أمي، سأرحل إلى أي مكان، بعيداً عن كل شيء، بعيداً حتى عن نفسي.

أتعبني التفكير، فشعرت ببعضِ الألم يحتل رأسي، نظرت إلى الكوب بجانبي فوجدته فارغاً من القهوة، ، لذا نهضت من مقعدي لإعدادِ كوب جديد، ذهبت لتنظيف الكوب، وعندما عُدت من المَطبخ إلى غرفتي وجدت موقد الكحول «السبرتاية» موقد!، ركوة البن وضِعت فوقه والنار تشتعل

بالفتيل!

وقفت مندهشاً، مصدوماً، أتلفت حولي كمن فقد صوابه، أصيح في حيرة متسائلاً:

_من هنا؟ من الذي صنع هذا؟ أجبني! من هنا؟

لا أحد يجيب، لم أكن أصدق عينيّ، خَطَوت ناحية الموقد الذي يعلو مكتبي، واقتربت منه، نظرت إلى الركوة التي تعلوه، فجُن جنوني، وانتصب شعر يديّ، وضعت كفيّ على جانبي رأسي ممسكاً شعري من الحيرة، أسأل نفسي بصوت عالٍ:

_كيف لذلك أن يحدث؟ من فعل هذا؟ من!

انقطع التيار الكهربائي فجأة، انطفأت نار الموقد، وعم الظلام الأرجاء!رجفة احتلت جسدي، وارتفعت درجة حرارة الغرفة، شعرت أنني داخل أحد الأفران، فقد كان العرق يتصبب من كامل جسدي، تحسست مكتبي وأنا ما زلت أرتجف، التقطت علبة الكبريت، وأشعلت عود ثقاب، جاد هذا بالمطلوب؛ نور خافت استطعتُ من خلاله الرؤية، بحثت عن هاتفي، حتى لمست النار إصبعي، وسريعاً انطفئ عود الثقاب، أشعلتُ واحدًا آخر، واحد تلو الآخر وأنا أبحث عن هاتفي داخل غرفتي ولا أجده، ثم سمعت صوت اهتزاز هاتفي يأتي من خارجٍ غرفتي، كان الصوت يصدر من بهو الشقة، التفتُ ناظراً صوب مصدر الصوت، فوجدت هاتفي أعلى مخدع أريكة الصالون، شاشته مضاءة، هنا توقف قلبي

داخل صدري، إذ وجدت خيالاً أسود اللون يتحرك داخل انعكاس ضوء الهاتف على الجدار، بدا خيالاً لا وصف له؛ قزم الأرجل، فارع القوام، تيبس جسدي كالموتى، لا أعرف ما الذي عليّ فعله، فأنا من شدة خوفي، لا أقوى على التفكير من الأساس! ثم سمعت صوتاً أضاف رعباً بداخلي، كان يهمس قائلاً:

_عليك أن تتبع الآن، وإما ستلقى أنت ومن تبقى من أحبائك نفس مصير السابقين!

عادت الكهرباء، وانطفئ ضوء الهاتف، طُرق الباب، فصرخت ووثبت من موضعي مستعيذاً بالله من الشيطان، وضعت كف يدي اليسرى على موضع قلبي داخل صدري، فشعرت أنه سيتوقف وألقى حتفي، أحنيتُ خاصرتي، وابتلعت ريقي بصعوبة، كان نظري حائراً في جميع أرجاء الشقة، طُرق الباب ثانيةً وأنا لازلت لا أقوى على الحراك، ركبتيّ تصطكان، استندتُ على الجدران، ومشيت حتى يتسنى لي فتح الباب الذي كان لا زال يُطرق، وعندما فتحته، وجدت إسراء وقد خيم على ملامحها الخجل، ترقرق الدمع بعينيها، وقالت بصوتٍ يختنق:

_أعلمُ أنك لا تريد رؤيتي، لكنني جئت إليك لأنني أعرفك جيداً، وما اقترفته في حقي ما هو إلا حماقة مصطنعة، فاعلمَ أنني هنا بجانبك دائماً رغماً عنك، ولن أرحل أبداً إلا عندما أراك عمر الذي عرفته.

لم أستطع حينها كبح غضبي، لم أستطع التحكم بنفسي،

فصحتُ بغضبٍ عارم في وجهها قائلاً:

_ أفقدتِ ماء وجهك؟ أنفدَ الدم بداخلِ عروقكِ؟ هل أنا مجبر علىٍ وجودكِ؟ لا أريد رؤيتك أبداً، لن يجدي ما تصنعينهُ نفعاً، اذهبيَ؛ اذهبي ولا تعودي إلى هنا مجدداً، مهما حدث، مهما حدث يا إسراء.

كنت سيئاً، أحمقًا، قليل الذوق والتربية، بعدما سمعت إسراء ما قلته لها، تبخرت من أمامي وهيٍ تبكي بانهيار تام، سال الدمع على وجنتيّ، لم يُخيل لي يومٍا أنني سأكون هكذا وأرتكب هذه الحماقة مع إسراء تحديدا.

أغلقتُ الباب بعد أن توارت إسراء عن نظري، وجلست على الأريكة ولا زال الدمع يحفر آثارٍ تلك الذكرى السيئة على وجنتي وداخل قلبي، بكيت كثيراً وأنا لا أعلم ما الذي أصبحت أعيش داخله، ومن الذي أصبحت عليه، فأنا لم أعد أشعر أنني أنا منذ وفاة سيف، تبدلت الأحوال، خسرت نفسي وأمي والآن خسرت إسراء، ظللت هكذا حتى هزم الإرهاق جسدي، وتغلب النوم عليّ أثناء التفكير.

******

كريم الطيب

الطبيب الشرعي

تلك الليلة كانت أحداثها غير مريحة بالمرة، بينما كنت أستعد لتشريح جثة السيدة(صفاء)؛ راودتني خيالات تحوم حول عقلي، رهبة خفية امتلكت قلبي، اقشعر جسدي،

وانتصب شعر ذراعيّ، هذا شعور دخيل عليّ، لقد شرّحتُ عدداً لا بأس بهِ من الجثث من قبل، ومارست عملي طيلة اثنى عشر عاماً؛ اثنى عشر عاماً قضيتها بين جثث الموتى، لم يرتعد جسدي ويخفق قلبي خوفاً إلا في مناسبتين فقط؛ المناسبة الأولى كانت منذ فترة وجيزة، عند قيامي بتشريح جثة المدعو(سيف)، والمناسبة الثانية فهي ما انتابني تلك الليلة، طردتُ عن عقلي كل ما ألمّ به من أفكار غريبة، والتقطت أنفاسي شهيقاً وزفيراً حتى تفارق ذهني أية طاقة سلبية، ثم وقفت أمام باب غرفة التشريح المتواجدة بداخلها جثة السيدة(صفاء)، وضعت راحة كف يدي أعلى المقبض واتكأتُ عليه بهدوء، ولجتُ إلى الغرفة، وأغلقت الباب وأصبحت على مقربةٍ من جسدها المُمَدد في سُبات تام، رفعت عيني شاخصاً إليها، هنا جف ريقي بحلقي، ارتعدَ جسدي كمن مسهُ تيارٍ كهربائي مفاجئ!

لقد رأيت عينيها مفتوحتين جاحظتين، وأنا على أتم العلم أن عيناها كانتا مغمضتين قبل قليل، لقد وقع نظري على جثتها عبر نافذة غرفة التشريح الزجاجية قبل أن أحضر نفسي للدخول إليها!

أغمضتُ عينيّ، ورددت بعضًا من آيات كتاب اللّٰه، ثم رجعتُ أدراجِي، فتحت عينيّ مرة أخرى، وسميتُ اللّٰه، ثم بدأت في عملي، وبعد ساعة من التشريح وصلت إلى نفس النتيجة تقريباً، حيرة ما بعدها حيرة؛ إذ وجدتُ كل العلامات الخارجية والداخلية لجثة السيدة، مماثلة لما وجدته مسبقاً

عندما قمت بتشريح جثة(سيف)؛ جسد يختلط لون جلده بالأزرقِ، عينان شاخصتان بخوف نحو الأعلى، أما من الداخلَ؛ كان سبب الموت واحدًا ويدعو للدهشة والحيرة، أزمة تنفسية أو قلبية حادة نتاج الخوف الشديد، أو ربما تؤول الوفاة إلى سُم(الرايسين)، هذا يعود إلى الكدمات أو ما يشبهها على الجسد من الخارج، لأن أثر ذاك السُم يختفي سريعًا من داخل جسم الإنسان بعد الوفاة، لكنني استبعدت هذا الاحتمال، هذه هي المرة الثانية التي أقف فيها ولا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل!

حُفظت القضية الأولى، وبهذه النتيجة ستُحفظ هذه القضية أيضاً، لا دليل على أي شيء، فقط أزمة تنفسية أو قلبية، هذا ما يبدُو منطقياً ويخاطب العقل، تركت أدوات التشريح من يديّ وخرجت إلى الاغتسال حتى أستطيع إنهاء التقرير الخاص بجثة السيدة(صفاء)، أنهيت الاغتسال وجلست أكتب، وما أن شرعت في الكتابة حتى سمعت صوت آثار أقدام يأتِي من داخل غرفة التشريح!

كيف لذلك أن يحدث والغرفة منعزلة، فلا صوت داخلها يسمعه من بالخارج ولا عكس ذلك! ظننتُ أنه ربما خُيل لي أنني سمعت صوتاً، فعُدت أكتب مجدداً، ولكن عاد الصوت مرة أخرى، ولمحت بطرف عيني شيئاً يتحرك داخل الغرفة عبر نافذتها الزجاجية، خيالاً يقف بجانب جثة السيدة(صفاء)، ليس له ملامح محددة، كل ما ظهر منه عينين سوداويتين لهما بريق لافت!

حينها لم أشعر بنفسي، أطلقت ساقيّ للريح وهرولتُ تاركاً كل شيء خلفي دون أن أبالي، نزلت إلى الشارع وركبت سيارتي وانطلقت دون وعيٍ إلى منزلي، في هذه اللحظة عاد عقلي يدرك الأمور مجدداً، دخلت إلى غرفة نومي ودون أن أبدل ملابسي، أوثرتُ الفراش، حاولت أن أهدأ، فقد كان جسدي يرتجف كالذي أصابته الحُمى، العرق يتصبب من كامل جسدي، لساني مُداوم لا إرادياً على الذكر تارة، وتارة أخرى أُرتل ما يخطر بذهني من آيات كتاب اللَّه، حينها هدأت، وسألت نفسي:

_هل ما رأيته كان حقيقياً، أم أن الخوف هيأ لي هذا؟

ما حدث كان لا يُصدق، في المرة الأولى أو بالأحرى عند تشريحي لجثة سيف ربما شعرت ببعض القشعريرة، إلا أنها كانت عابرةٍ ليس إلا، ولكن هذه المرة ما حدث لي كان مروعاً وحدث جلل، كاد قلبي أن يتوقف وأكون في نفس حال السيدة (صفاء)؛ جثة هامدة ليس أكثر!

مشيتُ إلى المطبخ لصنع كوب من الينسون حتى تسترخي أعصابي تماماً، وأنا لا أفهم ما الغريب الذي يحدث في هذه القضية تحديداً، في بادئ الأمر مات شاب يافع في مقتبل العمر ميتة سوء، ثم تبعته سيدة، وكلاهما على صلة بشخص يُدعى (عمر الدمرداش)!، فالأولَ صديقه، والثانية أمه، إذن؛ من يكون عمر هذا؟ وما هي قصته!

شخص واحد فقط هو من يملك الإجابة على أسئلتي، لكنني ترددت كثيراً أن أُخبره، مكثت طيلة شهرين تقريباً أفكر

في أمر إخباره بما مررت به، حتى عدلت عن رأيي بشأن ذلك، تكاثرت الأفكارِ داخل عقلي وتمكنت مني الحيرة، لذا اتخذت قراري أخيراً، أحضرت هاتفي، وقمت بالاتصال به على الفور، وحددت معه موعدًا، طلبت منه أن يسمح لي بزيارته في مكتبه صباحاً لأتحدث معه في أمر خطير بشأن مقتل سيف والسيدة صفاء، فطلب مني أن أتحدث، لأنني أثرت قلقه، إلا إنني امتنعت، فالحديث في مثل هذا الأمر الطارئ العجيب لن يجدي نفعاً عبر الهاتف، رضخ إلى مطلبي ووافق عليه ورحب ترحيباً كبيراً بي كي أزوره، أغلقت معه المكالمة، وأنا أسأل نفسي:

_هل سيصدق قولي، أم سيسخر مني ويهزأ بي؟

******

إسراء

دخلت يومها لغرفتي باكية، بعد ما أهان عمر كرامتي وقام بطردي من بيته، لا أصدق ما فعله بي أو أنه عمر من الأساس! لقد تبدل وتغير، لا أعرف كيف صمدت نفسي حتى تسنى لي العودة إلى البيت، كنت أقطع الطريق والدموع تفيض من عينيّ بغزارة، يَرمقني الناس بنظرات من الشفقة تارة، وتارة أخرى بنظرات من التعجب والاندهاشً، كان قلبي يتمزقٍ داخلِ صدري من الحزن، ولو أن عمر غرس في قلبي نصلاً حاداً لكان ألمهُ أقل وطأة من اهانة كرامتي..

لقد مَرَ شهرين على تلك الذكرى السيئة!!، شهرين مضيَا

والذكرى لا تفارق نفسي، وها أنا هنا أبكي على الأطلال، بينما لم أخطر بباله ولو لمرة، لقد نساني تماماً، ومَحَا وجودي بالكامل من حياته!

وبالصدفة؛ علمتُ عن طريق أحد أصدقاء عمر المقربين أنه ضل طريقه إلى اللّٰه واِتبع أهوائه وطريق الشيطان، وأنه ابتعد عن الجميع ويُخالل صديق سوءٍ، أخذه إلى الهاوية والضلال؛ فبعد أن كان عمر لا يترك فرضاً ويقيم الليل، ويتقِ اللّٰه في فعله وقوله، أصبح يشرب الخمر ويصاحب الساقطات! أهمل عمله حتى باع مقرهُ، وينفق ماله في كل ما حرمه اللّٰه، يا ربي؛ هل هذا هو عمر!

هذه الأخبار أحرقت قلبيٍ، كنت أخفي عن أمي كل ما حدث حتىٍ لا تسألني كثيراً أو تجبرني على قطع علاقتي بعمر تماماً، لأنه ما زال يملك كامل قلبي رغمٍ كل أفعاله، أشعر كأنه ابني، والأم لا تكره وليدها إطلاقاً مهما حدث ومهما فعل بها، لذا قررت استكمال ما بدأت؛ لن أدع عمر ينجرف نحو الضلال أكثر وسأكون بجانبه.

مكثت أفكر في إيجاد حل طيلة يومين، أقضي معظم الوقت داخل غرفتي، حتى لا تلاحظ أمي عليّ أي شيء، كنت أسأل نفسي مراراً:

_ماذا يتوجب علي أن أفعل؟ هل أذهب إليه مرة أخرى فيطرُدني مجدداً، أم أطلب مساعدة أحد أصدقائه!

حينها اتخذت قراري، عليّ أن أطلب مساعدة أحد أصدقائه،

وأُراقب جميع تحركاته وأنتظر اللحظة المناسبة لمساعدته، لا أملك أي حلول إضافية عن تلك، لربما استطعت ردعهُ عن طريق السوء الذي انحدر إليه وفيه!

كذبت على أمي وادعيت أنني أريد الخروج للقاء إحدى صديقاتي، فوافقت، لبست ملابسي، ثم ذهبت إلى حي عابدين حيث يسكن عمر.

وبعد حوالي ساعة أو أكثر قليلاً وصلت إلى وجهتي، وقفت تحت البناية التي يسكن بها (كرم) صديق عمر الذي أبلغني ما آل إليه حالهُ مؤخراً، كنت قد اتصلت به أثناء طريقي إلى منزله وأخبرته أنني قادمة إليه، ووجدته ينتظرني، ألقيتُ عليه التحية وسألته:

_كيف استطعت أن تتحصل على رقم هاتفي؟

ابتسم خجلاً وقال:

_أولاً عليّ الاعتذار لأنني فعلت هذا، لكن الأمر كان يقتضي ذلك، أرى عمر يضيع أمامي ولا أملك حتى نصيحته، لذلك أخذت رقم هاتفكِ من سجل هاتفه دون علمه في اليوم الذي أخبرتك فيه بما يطرأ عليه من فساد وضياع.

سألته:

_ إذن؛ احك لي كل شيء، لا تخفي عني سراً، لا بد أن نساعده ونستعيدهُ مرة أخرى.

اقترح (كرم) أن نذهب لمكانٍ مناسب حتى نستطيع التحدث

فيه، فوافقتهُ ومشينا إلى إحدى المقاهي (الكافيهات) القريبة، وبعد أن جلسنا شرع يحكي:

- أنا أقرب قاطني الحي لعمر، أراهُ بشكل يومي داخل المقهى أو صدفة في أي مكان، نجلس دوماً ونتبادلٍ أطراف الحديث أحياناً ونلعب الدومينو أحياناً أخرى، مؤخراً؛ وجدته متغيراً، تقريباً بعدما فقد صديقهُ المقرب(سيف)، عزل نفسه عن الجميع، وإن لاقيته صدفة، كان يبتسم لي بنوعٍ من المجاملة ويمضي حتى لا يترك لي فرصة للتحدث معه، استمر الحال فترة نحو ذلك، حتى اتصل بي ذات ليلة وطلب مني أن يبيت معي حتى الصباح في شقتي، رحبت بطلبه جداً وجاء إليّ وقضى معي تلك الليلة، ثم عاد مرة أخرى إلى وحدته، بل زاد الأمر سوءًا ونفيرًا، حتى أنني أتذكر أنه قابلني على مضض عندما قمت بزيارته لأقدم له واجب العزاء في مصيبتهُ بفقد أمه، شعرتٍ بإحراج، لذا؛ لم أمكُث عنده سوى دقيقتين وغادرت سريعاً، بعدها اختفى لفترة، ثم عاد يظهر مرة أخرى، لكن هذه المرة كان بصحبة شخص ما لا أعرفه، بدا أنه من خارج الحي، كانت هيئته رثة، حليق جانبي رأسه ويترك ما يوسطها من شعرهٍ، ملابسه تبدُو كأنها واسعة فضفاضة، يرتدي كنزة وبنطالاً من الجينز دائماً بمقاسات كبيرة عن مقاسه الفعلي، تتدلى من عنقه سلسلة كبيرة من الفضة، ويُزين جميع أصابع كفيه العشرة بخواتِم من ذهب وفضة، هيئته عجيبة، وتعكس ما آل إليه حال عمر، كأنه فقد عقله وصوابه!

وتفاقم الوضع سوءًا؛ إذ رأيت عمر ذات مرة بصحبة ذاك الغريب وهما عَائدان إلى منزل عمر قُرب الفجر وبحوزتهما أكياس سوداء، فطنتُ من نظرتي الأولى لما تحتويه بداخلها تلك الأكياس، بالتأكيد خمراً، كان عمر يترنح بينما ذاك الغريب يتماسك قليلاً، وهذا المشهد لم يقتصر على تلك المرة، بل تكرر كثيراً، وتأكدتُ مما تحتويه الأكياس، لأنني رأيت عمر يقف داخل متجر الخمور ويبتاعَ منه، تجمدت موضع قدميّ من الصدمة، وعندما رآني، نظر إلي نظرة يقول من خلالها أن ليس لي شأن أو حق أن أنظر إليه هكذا، وما لبث ينظر لي هكذا حتى مضى في طريقه، ولكن كل هذا لا يضاهي ما رأيته بعد ذلك، اعتدتُ دائماً أن أصلي الفجر في المسجد، وهذا ما جعلني أرى عمر كل تلك المرات السابقة، باستثناء حادثة شراءه للخمور، بعدما أنهيت الصلاة وكنت عائد إلى البيت، عرجتُ أبتاع شيئاً من متجر البقالة المتواجد بجانب منزل عمر، حينها لاقيته بصحبة فتاة، فتاة لا أعرف كيفية وصفها؛ ترتدي حجاباً يكشف ثلاثة أرباع رأسها، تضع على وجهها كل ما طالته يدها من مساحيق التجميل، حتى صارت ملامحها كالبهلوانات ومُهرجي السيرك، تلبس عباءةً سوداءِ مفتوحة بالكامل من الأمام، ويظهر من تحتها بنطالاً ضيقاً من الجينز منحوت على ساقيها، وقميص مُتغضن يكشف صدرها، عندما رآني رمقني بنظرات من اللامبالاة، فوقفت مشدوهاّ مما أبصره، حتى أمسك بيدها وزج بها داخل البناية، تملكني حينها شعور بعدم الاستيعاب، ضربت كفًّا على كف حسرة على ضياع عمر، ودعيت اللّه أن يغفر

له ويرد إليه رشده وعدت إلى منزلي.

هذه آخر مرة رأيته فيها قبل أن يختفى مرة جديدة، ثم تفاجأتُ منذ يومين وأنا أمكثُ في شقتي أقرأ كتاباً ابتعتهُ مؤخراً، بصوت رنين هاتفي، ووجدت رسالة منه عبر (الواتساب)، قرأتُ فيها أنه يقف في انتظاري أسفل البناية التي أسكن بها، هذا أثار دهشتي وفضولي، نزلت إليه على الفور، فقال لي بدون مقدمات:

_اصنع لي خدمة يا كرم، أريد أن أقترض منك بعض المال، لقد عرضت شقتي للبيع وسأردُ المال لك فور بيعها.

لم أستطع السيطرة على نفسي، ودون أن أشعر، وكزتهُ بكل قوتي في صدره، تملكني الغضب، وأمسكت بقميصهُ وجذبتهُ ناحيتي وأنا أصيح بوجهه:

_ماذا دهاك يا عمر؟ أي شيطانٍ يسكنك ويتقمصك؟ ما ماهية ما أصبحت عليه؟

حينها أمسك بساعديّ وأزاحهُما عن قميصه:

_تعرف يا كرم لو لم تكن أنت، لكنت قتلتك على ما اقترفت، جئت إليك لأمر بعينه لا أكثر، ستُقرضني ما طلبت أم لا؟

قال هذا بنبرة تهديد، ثم ترك لي ما كان يمسك به في يده، هاتفه وعلبة السجائر، وميدالية المفاتيح، ثم أردف قائلاً:

_أنا ذاهب لقضاء حاجتي، أرجو أن تقرر سريعاً.

كان يبدو عليه ثقة في النفس غريبة، كأنه تبدل، لا يبالي بما يقترفهُ من معاصي كأنه شيطان، ربما الشيطانٍ نفسه يستحي من التباهي بالمعصية، تعرفين عمر جيداً؛ فهو خجول، مهذب، يبرر أفعاله إذا أخطأ، ولا يتباهى بالمعصية هكذا!

خطرتِ ببالي لأنه كان يتحدث عنكِ كثيراً بالحب والخير، لذا؛ انتهَزتُ الفرصة، ومن حسن حَظي أن هاتفه ليس له رقم سري لقفل الشاشة، دخلت على الواتساب الخاص به، ولم أجد أي عناء لإيجادكِ، لقد وجدت اسمكِ مُدرج أعلى قائمة المحادثات المفضلَة لديه، نقلت رقمكَ على هاتفي سريعاً قبل عودة عمر، وعندما جاء أخبرته أننَي لن أقرضهُ جنيهاً واحداً حتى يعود إلى عقله ويترك طريق الشيطان الذي يسلكهُ، لم يبالي بقولي، أخذ مني أغراضه، وابتسم لي بسخرية ومضى في طريقه.

قتلني حديث كرم كثيراً، أدمى قلبي، جعل الدمع يفيض من عينيّ، كم يحزُنني ما اكتسبه عمر من شر وضياع، صمت للحظات مر فيها أمامي كل محاسن عمر، تنهدت وأنا أتمنى أن يعود كما كان في السابق، جففتُ دموعي وسألت كرم:

_هل تملك حلًّا لردع عمر عن طريق الشيطان؟

أجابني:

_حاولت وفشلت، ولذلك لجأت إليكِ، ربما أنتِ من تملكين الحل.

قال هذا ثم وقف وأشار إلى الساقي أن يحضر له الحساب، ثم أردف يقول:

_آسف، لكنني مرتبط بموعد مهم ولا بد أن أذهب.

ثم ترك الحساب للسَاقي وغابَ عن نظري، فخرجت من «الكافيه» وعدت إلى البيت.

******

الفصل الرابع

«الموتى».

صالح موسى

وكيل النيابة

وقفت شارد الذهن أنظر عبر نافذة غرفة مكتبي، أنفث دخان سيجارتي داخل أشعة الشمس المتساقطة على وجهي، أفكر في الأمر الغريب الذي أخبرني به صديقي (كريم الطيب) ليلة أمس، وأن هناك شيء غير طبيعي يحدث له، أصر ألا يخبرني بما ينتابه من قلق عبر الهاتف، وطلب مني أن يأتي لزيارتي في مكتبي، ليقُص عليّ كامل التفاصيل.

دق الباب، فالتفتُ ناحية الصوت وأذنتُ للطارقِ أن يدخل، جاء كريم في موعده، دنا إلى أحد كراسي مكتَبي المبطنة واستوثره، ارتسمت على شفتيه ابتسامة يتوارى خلفها أمراً غامضاً، صافحتهُ بحرارة، وشعرت أنه يلتقط أنفاسه بصعوبة، حينها طلبت من مجند مكتبي إحضار قهوتنا المعتادة، بدأت بملاطفته وسؤاله عن أحواله الشخصية وأحوال العمل، وتبادلت معه أطراف الحديثِ حول ذلك، قبل أن نصمت للحظات عندما دق الباب مجدداً ودخل مجند مكتبي وهو يحمل القهوة والماء، ووضع صحفة المياه والقهوة فوق الطاولة الكائنة أمام مجلس كريم مباشرة، ثم عاد من

حيث أتى، فاسترسلتُ الحديث مجدداً:

_ لقد أثرت بداخلي القلق يا صديقي، أخبرني ما الذي يحدث لك، نبرة صوتك لا تجعلني مطمئناً، وملامحكَ تؤكد هذا!

تنهد كريم لبضع ثوانٍ، وابتلع ريقه، ثم قال وهو ينظر إليّ بعينين زائغتين:

_لا أعرف إن كنت ستُصدقني أم لا؛ على أي حال لا بد أن أخبرك، لربما جننت وتستطيع رشدي، في بادئ الأمر كذبتُ نفسي، ومع تكرارِ الأحداثِ، شعرت بريب يجتاح عقلي وقلبي، دعني أسألكَ أنا أولاً، لماذا يسكن ملف أوراق (عمر الدمرداش) مكتبك؟ هل يثير الشكوك بداخلك؟

قلت:

_ لا، ليس تماماً، تشوب داخل عقلي بعض الأفكار، لكنك تعلم طبيعة عملي، أنا أضع أمامي كل شيء وجميع الاحتمالات، لا يوجد استثناء لأي إنسان مهما كان، لكن هناك ثمة شيء ونقيضه داخل نفسي؛ الأول يخبرني: أن عمر هذا يُستخدم بطريقة ما من قبل شيء غامض، ربما قاتل محترف يستخدمه في إنجاز مهام معينة له.

أما الثاني يقول لي: أنٍ عمر هذا هو قاتل صاحبه، وقد زاد هذا الشك بعد أن أُخبرنا بموت أمه، لذا؛ بدأت بعد موت أمه تحديداً، أمعن النظر يومياً في الملف الخاص به، أجد أنه كبر وحيداً دون إخوة، ربته أمه بعد موت والده

في سن صغيرة، علمته جيداً تعليماً عالياً، حتى تخرج في كلية التجارة (قسم المحاسبات المالية)، وورث عن أبيه عمله ومُلكه، إذ أن والده كان يملك أحد مكاتب المحاسبات الصغيرة، وعمر طور منه وجعل له صيتاً لامعاً وسُمعةً يُشهد بها، زاد الفضول بداخلي أكثر فأكثر، لذا؛ عينت من يراقبه كظلهُ ولا يفارقه أبداً، فأخبرني أنه سكيراً، يصاحب بائعات الهوى ويخالل أصدقاء الكأس ومجالس الشيطان، وبعد أن ماتت أمه خسر كل ما يملك وأصبح على هذه الشاكلة، فلا أعرف من يكون، أهو هذا الطالح السكير؟ أم إنسان هَشم الزمن نفسه وعقله؟

بينما كنت أحكي لكريم ما يراودني، احتل عقلي سؤالاً محيراً، هل أبوح له بحقيقة كل الهواجس التي تتزاحم داخل عقلي، وعندئذٍ يسخر كريم مني؟ أمِ ألتزم الصمت؟ ثم حسمت الأمر، وقررت أن أتكلم، أكاد أُصاب بالجنون، ربما حتى إن سخر مني فسأكون حينها قد فرغت من عقلي هذا الجنون الذي يسكنه.

فتحت علبة السجائر الخاصة بي، وأشعلت منها واحدة لنفسي، وهذا لأن كريم لا يدخن، تذوقت رشفة من قهوتي الفارغة من السكر، ثم أردفتُ قائلاً:

أنت أعز أصدقائي، وعلاقتي بك تتعدى حدود العمل، فأنت نعم الأخ والصديق، لذا سأُخبرك سراً، لا أعلم إن كان ما يراودني حقيقي، أم هو شئ من الخيال ليس أكثر.

ثم سألته:

_تتذكر التقرير الذي كتبته بعد ما قمتَ بتشريح جثة سيف؟ تتذكر ما هي أسباب الوفاة؟

أجاب:

_نعم ، كانت أسبابًا عجيبة لا تفسير لها.

قُلت:

_ نعم، هي كذلك، ولذلك حُفظتْ القضية، فلا دليل يدين أحدًا ، ولا دليل لأي شيء، لا آثار لبصمات، أو جروح، أو أي مقاومة، وبرغم حفظ القضية إلا أنها اًستمرت مفًتوحة داخلٍ ذهنيٍ، أسأل نفسي؛ ما الذي يجعل المرء منا يموت خوفاً وهلعاً ، ماذا حدث؟ أو ماذا رأى!

أحضرت كراسة ملاحظاتي، وبدأت أرسم خطوطاً عريضة، وددت أن أتحدث إليك في هذا الشأن، لكنني تراجعت، فكيف لعاقل متعلم أن يسند الأمور إلى أشياء مثل تلك؟ وقررت ألا تتعدى هواجس عقلي أسوار نفسي، وراقبتُ عمر لفترة وجيزة، يومين أو ثلاثة وكان هذا بصفة شخصية، فوجدته شخص اعتيادي، لا سكير ولا طالح، لذلك لا أعرف من هو؟ لكن ما دفعني لإلغاء المراقبة الشخصية وتكليف أحد المخبرين بالمهمة، هو ما كان يحدث لي في هذه الفترة، وفي يومي الأول لمراقبته، قضيت حوالي أربع ساعات في تتبع أثره، وعندما مللت، عُدت إلى منزلي، وابتعتُ أثناء عودتي بعضٍ مستلزمات المنزل من المعلبات، ربما أنك لا تحيط خبراً بهذا ، لكنني أعيش وحدي هذه الفترة بعد أن نشب خلاف بيني وبين زوجتي، وانتقل أطفالي للعيش معها

عند والدتها، سامحني إن لم أقص عليك هذا من قبل، هي امرأة جيدة ولكن ثمة ظروف طارئة، سأُخبرك بها لاحقاً.

دلفتُ إلى شقتي، ووضعت سلسلة المفاتيح والسجائر فوق (البوفيه)، ثم مشيتُ إلى مطبخي المصنوع على الطراز الأمريكي، وأسكنتُ المعلبات أرفف الثلاجة، حينها سمعت صوت آثار أقدام يأتي من غرفة مكتبي الخاصة داخل الشقة، انتبهت، والتفتُ مهرولاً إلى غرفة نومي، فتحت درج (الكومود)، وأخذت مُسدسي، لا بد أنه لص دخل إلى هنا، ثم دلفتُ ببطء إلى غرفة المكتب، وسألت:

_من هنا؟ أجبني وإلا قتلتك.

لم أجد رداً، كنت أقف عند باب غرفة المكتب وهو مغلق من الخارج أُشهر مُسدسي في خط مستقيمٍ عند موضع الرأس لإنسان متوسط القامة، سألت مجدداً:

_من هنا؟ أجب، من هنا؟.

وفجأة؛ أُنير ضوء الغرفة المُطفئ! لم أشعر بنفسي، رفعت قدمي من على الأرض وبكل ما أوتيتُ من قوة ركلتُ باب الغرفة، فُتح على مصراعيه، وصوبتُ طلقة في الوضع الذي كنت مُتخذه، كسر صوت الطلقة السكون ليحتل الصمت نفسي بدلاً من الغرفة، وقفتُ مشدوهاً لا أملك أية كلمات تعبر عن صدمتي، إذ وجدت الغرفة فارغة، إذاً، من أنار مصباح الغرفة!

جاء من البهو صوت خفوت يهمس منادياً باسمي، حينها

وقَف شعر رأسي وذراعيّ وخفق قلبي، استدرتُ ونظرت نحو البهو الذي أراه جيداً من داخل الغرفة، فلمحتُ خيالاً له هيئة مريبة ينعكس على الأرض، تأهبتُ جيداً بوضع المسدس مرة أخرى في الوضع المثالي لقتل أحدهم، وهرولتُ، وأنا أقول في نفسي:

_لن تُفلت مني هذه المرة!

وخرجت من الغرفة إلى البهو، فلم أجد أحدًا، مكثتُ أتلفت حول نفسي كالمجذوب، أصيح بغضب متسائلاً:

_من هنا؟

صرخة مدوية اخترقت طبلة أذنيّ، وثبت من الخوف، كاد قلبي أن يتوقف، شعرت أن هناك أحد معي، أشعر بأنفاسهُ ووجوده ولا أراهُ، كنت لا زلت أتلفت حولي باحثاً عن ذلك الشيء الذي يحاول إرهابي وحينها وقع نظري على باب (الثلاجة)، إذ وجدت قد كُتب عليه بسائلٍ أحمر اللون يشبه الدم الطازج:

«صالح؛ لا تبحث ولا تُجهد عقلك كثيراً، ولا تُخاطر بحياتك من أجل ما لا تعرف عواقبه، دع عنك الأمر، وإلا ستموت»

كنت أقرأ الجملة وعينيّ توشك على مغادرة محجريهُما من الذهول، دنوتُ من باب (الثلاجة)، وتحسست السائل بأناملي فتأكدتَ أنه دماً، لم يكن باستطاعتي حينها أن أطبق فمي من الحيرة، جف حلقي، وابتلعت ريقي بصعوبة وخطر ببالي عمر، لا أعرف سبب هذا لكنه خطر ببالي، تخيلته

يُحذرني أن أبتعد عنه وأتركهُ وشأنه، دق باب الشقة عنوة، فقلت في نفسي:

_من الذي تسول له نفسه أن يَطرُق الباب بهذه القوة!

ثم أسرعت وفتحته، فلم أجد أحداً!

رجفة شديدة اجتاحت جسدي كمن مسه تيار كهربائي، شعرت بريح باردة حولي، سقطت اللوحة المعلقة في البهو لأول مرة منذ أن ثبتها بنفسي قبل عشر سنوات ماضية!

ودون تردد أخذت المفاتيح وأغلقت الباب عنوة ولذتُ بالفرار، ولم أبِت طيلة يومين كاملين داخل شقتي وذهبت للمبيت عند أمي، هذا ما حدث لي يومها وليس كل ما مررتُ به كاملاً، أعلم ما يدور في نفسك وتقوله عني، بالطبع مجذوبٍ فقد عقله وصوابه، صحيح؟

كان كريم يستمع لي بإصغاء، يُركز جيداً ولم يقطع حديثي مُطلقاً، وما إن أنهيت السرد، حتى فرك عينيه من أسفل عدستي نظارته الطبية، وقال بنبرة يكسوها الخوف:

_بل أصدق كل حرف نطق به لسانك، لقد حدث معي ما يعادل ذلك، وخصيصاً بعد موت السيدة (صفاء) والدة عمر هذا، تشابه الموقفين عند نفس النقطة، موت السيدة، ربما إن قصصت لك ما حدث لي بداية من موت سيف لتشابه الموقف بيننا مرة أخرى، لكنني أريد أن أسمع منك كل شيء، احكي لي ما حدث من البداية؛ منذ موت سيف!

******

إسراء

جلست فوق الكرسي الخشبي الهزاز المفضل لدي داخل شرفة غرفتي، أفكر في حديث (كرمٍ) عن تدهور حال(عمر)، لقد ترك حديثه في نفسي ألماً جماً، كمن ذبح ضحيته بسكينٍ باردٍ، أراقتْ الهموم قلبي، وأعلن الحزن دولته داخل نفسيٍ، هاً أنا ذا أقف عاجزة، مكبلة الأيدي، ولا أستطيع مساعدة عمر.

سمعت صوت أقدامٍ أمي تقرع الأرض وتعلن عن مجيئها، فجففتُ دمعي سريعاً واعتدلتُ في مجلسي، أمسكت إحدى رواياتي اللاتي لا تفارقنَ مكتبتي الصغيرة داخل شرفة غرفتي نهائياً، واصطنعتُ أنني أقرأ حتى لا تلحظ أمي عليّ أي تغيير، فسألتني:

_ألن تأكلي شيئاً؟ هيا لقد أعدتُ لك أكلتك المفضلة، والأكل يسكن طاولة الطعام الآن، هياَ لنأكُل، القراءة لا تستطيع الطيران أو الهروب، لكن الأكل سوف يفقد مذاقه عندما يبرد.

ثم عادت من حيث أتت، ولحقتُ بها عند طاولة الطعام وقد جهزت أمي كل ما لذ وطاب، لكن هذا لن يفلحٍ مع شهيتي التي ذهبت ولم تعد، فأنا لم يدخل معدتي شيئاً منذ يومين، وأصيرُ على نحو ذلك منذ فعلة عمر بي، آكل أقل القليل كل يومين أو ثلاثة، أعيش على الماء و(النسكافيه)، لكنني مضطرة أن أحاول، لا بد ألا أقوم بكسر خاطر أمي أكثر من ذلك، لقد أرهقت نفسها وجسدها المريض لتُعد من أجلي

كل هذا الطعام.

جلست بجوارها شاردة الذهن، أقتطع قطعة من اللحم ، أدسُها داخل فمي ببطء، وأمضُغها ببطء أكبر، أمسك الشوكة وأغرسُها بين ثنايا طبقي المحمل بالبشاميل مراراً وتكراراً دون أن أرفع يدي إلى موضع فمي، أفكر فيما يتوجب عليّ فعله تجاه عمر، حينها داهمني صوت أمي وهي تسألني:

_ماذا بك؟ ألاحظ عليكِ ثمة تغير! هل يُحزننكِ شئ؟ أصابك مكروه؟ أهُنالك خلاف نَشب بين عمر وبينكِ؟ لَم يقم بزيارتنا ولا مرة منذ وفاة والدته رحمها اللّه، هل تحسنت حالته؟ لا تخفي عني سركِ، فلن تجدي من هو أجدر مني للبوح إليه.

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة حاولت أن أخفي خلفها ما يحزُنني وقلت:

_ لا ، لم ينشب بيننا أي خلاف، أنا فقط أشعر ببعض التعب، تعلمين أنني حظيت مؤخراً بآلام المعدة، وهذه الأيام تؤرقني كثيراً ، سأكون بخير، لا تقلقي.

شرعت أُعيد نفس الفعل، حاولت أن آكل ولكنني أحسست بالفعل أن ثمة نار متُقدة داخل معدتي، نهضت من مجلسي، وسألت أمي إن كانت تحبذ شُرب (السفن آب) معي، فأومأتَ برأسها ، أحضرت كوبين من المشروب، وقمت بمساعدتها في تنظيف طاولة الطعام بعد الانتهاء منه، أثناء ذلك كانت تسيطر على عقلي فكرة واحدة فقط؛ لا بد أن أذهب إلى عمر مرة ثانية، يتعين عليّ أن أقف بجانبه، حتى إن كرر فعلته وقام بطردي، سأحاول مراراً دون هوادة، لقد فعل

الكثير من أجلي سابقاً ولن أتخلى عنه حالياً.

******

عمر

_لقد انتهيت من إعداد اللحم، هل تريد بعضاً من شراب (الواين) معه أثناء العشاء؟

قالها (إياد) بصوت عالٍ يسألني، فلم أعرهُ اهتمامي، فضلتُ الصمت على أَن أجِيب على هذا التافه الذي يشبه أنثى قبيحة متحولة، والعودة إلى التفكير مجدداً، سأخبرك لماذا أطلقتُ عليه هذا اللقب لاحقاً، لقد أصبحت الآن شيطاناً، لا أصدق نفسي، هل هذا هو أنا!

نظرتُ مشمئزاً نحو (إياد)، وهو يقف داخل المطبخ، يُفرغُ اللحم في أطباق التقديم، وعلى حين غرة تبدل الاشمئزاز على وجهي بابتسامة عريضة، إذ خُيل لي أنني أرى أمي وهي تقف في المطبخ، وتطلب مني كعادتها، أن أجلب لها الخبز من (الثلاجة)، لتقوم هي بتسخينه، وأن أُسَاعدُها في إعداد طاولة الطعام، ترقرق الدمع بعينيَّ، وسقطت قطراتٌ أحرقت قلبي قبلٍ وجنتيّ، دق الباب تارة تلو الأخرى، فلم أُعر ذلك اهتماماً، حتى خرج (إياد)، هذا الأنثى المتحولة من المطبخ، تترنح خاصرتهُ كما يتبخترنَ النساء، وقال بصوته الناعم قاطعاً تفكيري:

_ألا تسمع دق الباب؟ لمَ لا تنهض وتفتح؟

لم أنظر إليه حتى، كنت شاخصاً البصر إلى التلفاز

دون أن أبالي لحديثه، أو حتى لما يُعرَض على الشاشة، فاستدار هو وفتحِ الباب، تابعت ذلك بطرف عيني، فدَخلتْ إحدى نسائه اللعائِب، يتشدق فكها، أظن أن هذه العلكة الآن تعسة؛ إذ وجدَت نفسها تُعجن بُلعاب تلك الباغية، التي اختلط لُعابِها بالكثير من الرجال، وربما النساء كذلك، وقَفتْ أمامي مباشرة، تشبه البهلوان؛ إذ أن وجهها مُلطخ بجميع مساحيق التجميل التي صُنعت عبر التاريخ، مُحمرة الوجنتين كالطماطم التالفة، عيناها ملطختان بكثير من الخطوط السوداء (الكحل والمسكرة والآي لاينر) وكل ما يندرج تحت ذلك، لها أنف مدبب أطول من أنف (بينوكيو)، لون عينيها كلون أعين القطط، وكم أشفق على القطط من هذا التشبيه، وعلى العدستينِ الملونتينِ أيضاً، لها فم يشبه مدخل باب النصر، عندما كانَ يُفتح علىَ مصراعيه لاستقبال عودة الجيش المنتصر، لقد رأيت كل هذا وهي تضع كل هذا الكم من مساحيق التجميل، ما بالك بها قبل ذلك! ربما إن رأيتها عند استيقاظها من النوم، لسقطتَ ميتاً من الخوف!

خلعت عباءتها السمراء وكشفت عن جسدها، لها بطن مُتدلي يكاد يصل إلى ركبتيها، ما هذا الكائن؟ لا بد وأنها سقطت من إحدى العصور المجهولة قبل مائة وخمسين مليون سنة، اقتربت من مجلسي وهي تبتسم بفم مفتوح، فشعرت حينها أنني أشتم كل روائح البالوعاتِ تخرج من فمها، كم هذا مقزز، وقبل أن تنطق بأيِ كلمةَ قمت مسرعاً وفتحت الباب ونزلت إلى الشارع متجاهلاً سؤال إياد إلى أين وجهتي.

زرعت الشوارع الخاوية سيراً، في هذه الساعات من الليل يداهمني شعور غريب لحساب وتهذيب نفسي، أرى في الضمير كائن ليلي، ينام طيلة اليوم ويستيقظ بعد الثانية عشرة، يقف أمامٍ عينيك مباشرة ولا تستطيع التحديق به، تضع عينيك أرضاً من الخجل بينما هو يجلدُك عما اقترفته في حقٍ نفسك، ما أصعب تلك اللحظات، أشعر أن بداخلي شخصاً ليس مني بشيءٍ، زائر سكن جسدي بعد موت سيف، ثم ابتاع جسدي ملكاً له بعد رحيل أمي.

نسمة هواء عليلة تملأ رئتيّ، وقَشعَريرة لطيفة تعتلي مسام جلدي، حينها داعب عينيّ ضوء المقهى المفضل لديّ، الكائن داخل سوق (الاثنينِ) بحي السيدة زينب، شعرت أن المقهى يفتح ذراعيه يَستقبلُني عندما قال عم (حامد) القهوجي:

_أهلاً يا أستاذ عمر، لم نعتد أن تغيب علينا كل هذه المدة.

كم هو غريب عم (حامد) هذا، أكاد أُقسم أنني في عمري كله كلما جئت إلى المقهى أجده مهما كان الوقت! لا أعرف متى ينام ومتي يستيقظ؟ وكيف يواصل العمل دون ملل أو كلل ولا يفقد ابتسامته وتقديم الترحاب لكل زائري المقهى، بل يُشعرك أنك قد دلفتَ إلى منزلك!

صافحتهُ مبتسماً، وجلست، أشعلت سيجارتي، وراود مسامعي صوت (الشيخ مصطفى إسماعيل) الشجي عبر المذياع يتلو قرآن الفجر، اطمئن قلبي، وسكنت نفسي، أحضر عم (حامد) قهوتي المعتادة وانصرف وهو يردد مع الشيخ الآيات، كم أفتقد هذه الأجواء جداً!

ـــهل تسمح لي أن أجلس معك قليلاً؟

قالها كرم يسألني؛ إذ وجدته يقف أمامي على حين غرة، فلت مبتسماً:

ــ تفضل طبعاً، من الجيد أنك جئت، أريد أن أعتذر لك عما بَدَرَ مني تجاهك؛ فأنا ينتابني أحيانا شعور يُفقدني نفسي.

قال بتطلع:

ــإذاً؛ أخبرني بما يدور داخل نفسك، وكيف تبدلت هكذا؟

تنهدتُ كأنني أحمل فوق صدري أثقال العالم أجمع، وقلت بنبرة حزينة:

ــ يطول الشرح يا كرم، لن تفهمني أبداً مهما شرحت لك، بل أنا نفسي لا أفهم شيئاً، تغير كل شيء من اليوم الذي التقطتُ فيه النظارة، حتى أنني لا أعرف أيضاً إن كانت تلك النظارة سبباً أم لا، أعتقد أن هناك قوة أكبر تخدعني، هناك شيء يرافقني كَظلي ولا يفارقني أبداً، بل ويستطيع في غالب الوقت أن يسيطر علي سيطرة كاملة، فيجعلُني أتصرف كما يحلو له، أصبحت سكيراً عربيداً، أُرافق النساء وأُخالل الشياطين، تعرف؟ أنا أمقُت ذلك الرجل الذي يشبه أنثى قبيحة متحولة، ولكن قبل هذا التوقيت لم أشعر بذلك، لا أستطيع التعبير عما يدور بداخلي وهذه هي المعضلة، في ذاك اليوم الذي رأيت فيه معي الفتاة، وذاك اليوم الذي جئت إليك فيه أطلب قرضاً، لم أكن أنا بالمعني المادي أو

الحرفي، كنت لا أشعر بجسدي، أرى الأشياء ولا اتحكم بها، كنت أتحدث معك وأنا أرى المشهد من الخارج، كما لو أنك تشاهد فيلماً يعرض أمامك وأنت بطله، كنت أحاول أن أقول لك هذا ليس أنا، لا تصدق أبداً، لكن كيف ذلك وأنت تراني بكامل هيئتي؛ أصطحب امرأة لعوب وصديق سوء، لن تفهم شيئاً أبداً، أنا أيضاً لا أفهم.

أعتقد أن لسان حالك يخبرك أنني أُخرف، تقول لقد جُن عمرٍ، شاخ عقله بعد بلوغ الثلاثين من عمره، هذا الكهل بدلاً من أن ينضج ويكتمل عقله بوصوله إلى هذه المرحلة العمرية، أصبح ذي عقل بالي.

قاطعني بنبرة يملؤها اللين والرفق:

_لا يا عمر، أنا أعرف أن هناك ثمة شيء دخيل عليك، أستشعر هذا جيداً، يجب أن أصدق قولك لأننا أصدقاء وأرى رؤية واضحة أنك لم تعد أنت، سنكتشف السر سوياً، لن تكون وحدك أبداً.

ربت على كفي وعيناه تخبرني أن لا بأس، ستصبح الأمور بخير قريباً، سمعت حينها المؤذن يقول (اللّه أكبر اللّه أكبر)، فارتعدَ جسدي، ذلك الشعور تملكني مجدداً، كأنني انفصلت عن نفسي، روحي تركت جسدي ووقفت ترمقُه بنظرات لا تفسير لها، تكلم كرم وطلب مني أن أذهب معه للصلاة، لم أجبهُ وقمت من مجلسي وتركته يقف مشدوهاً ومشيت، أردت أن أعود له، مددت يدي عله يراني وأنا استنجد به، لكن أنا هنا خيالاً، وهو لا يرى سوى جسدي

الذي هو ليس أنا!

عدت إلى المنزل، ووجدت فجأة أنني أشعر بجسدي ثانية، جلست أمام شاشة التلفاز، صدر صوت من غرفتي، فانتبهتُ، فُتح الباب وخرج (إياد) وفي ذيله المرأة صاحبة البطن المُتدلي، وقبل أن يفتح فمه ويتكلم، نهضت من مجلسي ودخلت غرفتي، دلف إياد خلفي يسألني:

_(ريري) تسألني؛ تريد أن تدخل إليك.

أصابتني نوبة ضحك هستيرية عندما ذَكرَ اسمها، لدرجة أنني وقعت على الأرض من كثرة الضحك، كان إياد واقفاً عاقداً حاجبيهِ يأكل شفته السفلى كعادته عندما يسيطر عليه الغضب، حتى صاح بصوته الناعم:

_ما هذه السخرية؟

قلت وأنا لا زلت أضحك:

_ آه يا إياد لو علم الأطفال أن هذه المرأة تُدعى ريري فلن يقبلوا أبداً على الطعام المفضل لديهم الذي يُطلقَ عليه هذا الاسم، وإن علمت الشركة المنتجة له، لقاموا بتغير اسمه على الفور، لا عليك مني الآن، خذ هذه الحرباء الملونة خارج منزلي، اذهب بها إلى أي مكان آخر، أريد خلوة مع نفسي، نفسي فقط.

حاول أن يتكلم، فردعتهُ بغضب، وصرخت بأعلى صوتي في وجهه أن يرحل بها، تغير لون جلده وارتسمَ الخوف على تقاسيم وجهه، ثم استدار وعاد إلى البهو، وبعد دقائق قليلة

مكثت خلالها داخل غرفتي، سمعت صوت باب الشقة يُفتح ليعلن عن مغادرتهُما.

فتحت درج مكتبي وأخذت النظارة، ووضعتها فوق راحة كفي، أمعنت النظر بها، وتحدثت إليها كأنها تسمع:

_ ماذا يسكنك؟ من زج بكِ إليّ؟ هل جننت أم هناك شبحاً يسكنني؟

لبستها، حسبت أن ذاك المشهد الذي حمل الموتى في السابق سيتكرر مرة أخرى، أو أنني سأَرىَ ما يُثلج صدري، أو أجد دليلًا يرشدني إلى ما أصبحت عليه، لكن: لا شيء! مجرد نظارة بالية للقراءة، لا أكثر ولا أقل، تملكني الغضب، وفار الدم داخل عروقي، فقَذفتُها على الأرض وأخذت أرفع قدمي وأدهسُها مرة تلو الأخرى وأنا أصرخ، حتى أصبحت أشلاء صغيرة، شعرت أنني أخرجت كبتاً وغيظاً كانا سَجينَين بداخلي، ومكثت أصرخ وأصرُخ حتى سقطت أرضاً.

ريقي جاف، صوت الهاتف أيقظني، ودق الباب أيضاً!

لقد فقدت الوعي ليلة الأمس، فتحتُ عينيّ بصعوبة حيث أن ضوء الشمس يسقط عليهما مباشرة، كان جسدي مرهقاً، اتكأتُ على مخدع كرسي مكتبي ونهضتُ ببطء، كنت لازلت أبتلع ريقي بصعوبة، وكان الباب لازال يدق والهاتف يرن، ويظهر على شاشته اسم إسراء!

ترددت في الرد حتى انقطعت الرنة، فوجدت ثمانية وثمانين مكالمة فائتة منها! رن هاتفي ورقمها ظهر للمرة التاسعة

والثمانين، فأجبتُها على مضض، قالت بحنق:

_أنا أقف خارج الباب منذ ساعتين تقريباً، افتح لي الباب وإلا كسرته.

أغلقت المكالمة، تكسر ماذا؟ متى تحولت إسراء إلى (جريندايزر)؟ من تقول هذا تترنح من هواء الشتاء!

على أية حال دنَوتُ من الباب وفتحت لها.

******

إسراء

هل ستقوم بطردي مجدداً؟، لقد أصبحت عديم الذوق قليل الحياء، دفعته وانطلقت أفتش داخل غرف المنزل علني أجدها في فراشه، لكن لا شيء، ربما كذب عليّ كرم، وربما تخلص عمر منها قبل حضوري، كان مازال يقف عند الباب، ينفث دخان سيجارته ويضحك بخبث، تملكني الغضب وهرولتُ إليه ووكزتهُ في صدره، لم يتحرك، أحكم قبضته على كفي، وأغلق الباب بقدمه، ودفعني، لأسقط على الأريكة، فجلس فوق الطاولة المقابلة، وقال:

_لماذا لم تقومي بتحطيم الباب يا إسراء؟ باللّه عليكِ؛ هل تقوي أن تُحركي هذه الطاولة من موضعها أصلاً؟ قفي وادخُلي المطبخ، اصنعي لنا الشاي، سأغتسلَ وأعودُ إليك حتى تقولي ما جئتِ من أجله.

أخذ يُصفر ويغني، دخل إلى الحمام، وما إن أغلق الباب

خلفه، حتى أخذت أبحث عن أي شيء يخفيه عني، فوجدت النظارة مُهشمة ومُحطمة على الأرض داخل غرفته، هنا تذكرت ما جئت من أجله وما أخبرني به كرم ليلة أمس، لقد اتصل بي بعد الفجر بحوالي ساعة، كنت أجلس في شرفة غرفتي شاردة الذهن أفكر في عمر، وجدت هاتفي يهتز برقمه، فخفق قلبي وتزايدت دقاته، أجبت مسرعة فأخبرني....

_لماذا تقفي هكذا؟ أين الشاي؟

قالها عمر وقطع حديثي إلى نفسي؛ إذ وجدته يقف خلفي مباشرة مبلل الرأس، يمسح خلف رأسه بالمنشفة، فسألته:

_ لماذا قمت بتحطيم ذكراك الوحيدة من سيف؟ لقد ملأ الجحود قلبك وأصبح بالياً، لم يعد يعني لك أحد، لم يعد لك عزيز أو غالي، فها أنت تحطم ذكراك الوحيدة لصديق عمرك الراحل.

كان عمر يستقبل كلامي والغضب يحتل تقاسيم وجهه، عقد حاجبيهِ فور انتهاء حديثي، وقال وهو يَتَأفف:

_إسراء؛ أنا أعيش فترة هي الأسوأ في حياتي، فترة عصيبة لا يتحمل عقلي استيعابها، موت يتبعه موت، شخص يتحكم بي ثم يختفي، ثم أعود إلى نفسي، ثم أجدٍ نفسي داخل أحضان امرأة تشبه المهرجين، وأخالل رجلاً يشبه أنثى قبيحة متحولة، خمر ومنكر، يتبدّىَ طريق الرجوع عن السوء الذي أأقترفهُ أمامي ولا أملك التحكم في زمام أمرٍي ونفسي، نظارة تعكس عبر الرؤية من خلالها مشهدًا كاملًا

للموتى داخل أَكفانهم، مُصطفين جنباً إلى جنب، ثم يختفي المشهد، شخص يحتل هَيئتي، سبق وتقابل معكِ، رأيته يخرج من البيت وظننتِ أنه أنا ولما صعدت إلى هنَا رأيتني مجدداً، زاركِ في البيت، قابلكِ مرة تلو الأَخرى، رأته أمي كذلك، لذلكَ؛ حطمت النظارة، أكفأتُ الغضب من داخلي كما يكفأُ المرء الماء بجوفه من شدة الظمأ، لا أعلم إن كانت النظارة لها دخل بما أَحاط بي أم لا، لكن تحطيمها خففت عني كثيراً، عليكِ أن ترحلي يا إسراء، أنا الآن أنا، ولا أضمن إلى متى سأكون أنا، سيتبدلَ الحال في أي وقت، دون أن أعي ذلك.

أنهى حديثه وخارت قوى جسده، لم تستطع ساقيه أن تحملان ثقل جسده المتعب، فسقط جالساً على الأرض، فاض الدمع من عينيه، فدنوتُ منه، وجلست إلى جانبه وربتت على كفه، وقلت له بصوت حنون:

_ نحن معك يا عمر، أنا وكرم وكل الذين يحملون داخل قلوبهم الخير والحب لك.

نظر إلي بغضب، فتجعدتْ جبهته مستغرباً وسألني:

_وما أدراكِ بشأن كرم؟

_هذا ما جئت من أجله.

قلتها وأنا أصفعُ مقدمة رأسي، ثم أكملت:

_ لا يهم الآن كيف تواصلت مع كرم أو متى وكيف عرفته، ما يهم الآن ما حدثني به كرم ليلة أمس، لا أعرف كيف

تناسيت ذلك ولم أخبرك سريعاً عند وصولي، ربما هو يحتاج العون ومساعدتك له، لم أكمل كلامي حتى لمحت عيني عمر تلمعان كالفِضَة!

أمسك رأسه بكفيهِ وأخذ يضغط عليه، صرخ من شدة الألم، وفجأة وثب من مجلسه وبدأ يترنح ويكسر بيده كل شيء أمامه، كان يصرخ من أعماق قلبه وأنا لا أعرف ماذا عساي أن أفعل، اقتربت منه، لكنه دفعني فسقطتُ على الأرض، كان جسدي يرتعد، كنت لا أستطيع التنفس بشكل منتظم، حُبستْ أنفاسي من الخوف، وتكورتُ بزاوية الغرفة والدموع تنهمر على خديّ كفرعي نهر النيل، أعُضٍ على لساني وشفتي السفلى كي أهدأ ولا يجدي ذلك نفعاً، ولا زال عمر يصرخ ويرمي بيده ويكسر كل ما يقابله أمامه، وهكذا استمر الحال نحو ربع الساعة تقريباً، حتى فقد عمر وعيه، وسقط على الأرض، تصبب العرق من كامل جسده، يسعل تارة ويشهق تارة أخرى، نهضتُ وساقيّ تصطكانِ من الخوف، ودنوتُ صوب الثلاجة، أحضرت زجاجة ماء وعدت صوب عمر مرة أخرى، كان إلى حد ما في حال أفضل، رَفعتُ رأسه على راحة كف يدي اليسرى، ووضعت زجاجة المياه بيدي اليمنى على فمه كي يشرب، فشرب وكأنه لم يذق حلقه الماء منذ سنة! ارتوى وعاد إلى وعيه مرة أخرى، ثم قال وهو يبكي:

_لقد فات الوقت يا إسراء، لقد مات كرم!

******

الفصل الخامس

«المعرفة أشد من الجهل»

صالح

شعرت ببعض الراحة عندما صدقٍ كريم على كلامي، أشعلتُ سيجارة أخرى واسترسلت قائلا:

_أثناء التحقيقات وخصيصاً عند تواجدي في مسرح الجريمة أو بالأحرى الموت داخل شقة سيف، كان يراودني دوماً إحساس بعدم الراحة، ثمة شيء ثقيل يقف فوق صدري، كتلة خرسانية شُيدت قواعدها داخل رئتيّ، فحجبتْ أنفاسي، لدرجة أنني كنت أنظر إلى ساعة يدي كل دقيقة وأنا أدعو الله أن يمضي الوقت سريعاً حتى يتسنى لي أن أرحل من داخل هذا المكان الذي تفوح منه رائحة الكآبة، أريد أن أخبرك أيضاً بشيء هام قبل أن أنسى؛ أنا لا أستثني والدة سيف عن دائرة شكي، هذه السيدة بها خطبٌ ما، هاتف داخلي يخبرني أنها متورطة بقتل ابنها، لكن لا دليل على ذلك سوى خيالي والشك بداخلي فقط، كنت كلما ذهبت إلى شقتها هي وابنها المتوفى، تظل تبكي حتى أنني أسأل نفسي؛ من أين لها بكل هذه الدموع؟، ينهمر الدمع من عينيها كما لو أن السماء أمطرت في منتصف يناير على مدينة ساحلية في أقصى الشمال! وفي كل مرة يقول الهاتف

الداخلي لي؛ هذه السيدة تصطنعُ الدموع، دموع مزيفة كما تجيد زيفها التماسيح، وهذا كان يجعلني أكثر كآبة، لا أحب عويل النساء، أشعر أنه مصطنع دائماً.

ذات مرة عندما بدأنا التحقيقات، جاء عمر على حين غرة، لا أعرف سبب مجيئه، كنت أبصرهُ جيداً بينما هو لم يكن يراني، كنت في غرفة المعيشة التي تكشف الشقة بأكملها ولا أحد خارجها يكشفها، وجدته دلف خلسة إلى غرفة سيف وكنا قد منعنا مسبقاً أن تطأ بداخلها قدم أحد، ولسببٍ ما لا أعرف ماهيته تركته يفعل، وناديت العسكري الذي كان على مقربة من الغرفة حتى أترك لعمر مساحة كافية لنيل ما أراده، تابعت بنظري الوضع بالخارج عند باب غرفة سيف، بعد دقيقة خرج عمر وهو يتلفت حوله كما اللص الذي يتوارى عن أعين الناس، كما لو أن العالم بأسره شاهد ما فعله بالداخل، أسقط شيئًا داخل جيبه خلسة، ونظر حوله مرة أخرى، ثم اطلق ساقيه للريح تاركاً الشقة وخرج، صراحةً، لا أعرف لماذا تركته؟، ولماذا لم أواجههُ بذلك بعد، لكن مازال الهاتف بداخلي يخبرني أن لفِعَلتي وقتًا مناسبًا سأستعيدَ تلك النقطة فيه.

في تلك الفترة، ويومياً؛ من اليوم الأول لموت سيف حتى يوم موت السيدة صفاء، رَاوَدني حلمًا واحدًا لا غيره، أو بالأحرى كَابوسًا واحدًا، كلما هَزمنيَ النوم وتغلب على عينيّ الضعيفتين، رأيت ظلاً يبدأ بالظهور متمثلًا في هيئة عمر ثم يتحول إلى ما لا أستطيع وصف بشاعته،؛ له ساقان قصيرتان، جسد نحيل، وقامة فارعة من دون ساقيه! يقف

أمام جثث كُثر كُفنت داخل أقمشتِها البيضاء بالكامل دون الوجه، لا أريد إخافتك؛ لكن هذا مجرد حلم أو كابوس لا أكثر وهذا من فعل الشيطان، لا تخف، كنا أنا وأنت ضمن هذه الجثث! أما بقية الجثث مشوشة الملامح، كالهالة التي توضع فوق أوجه المجرمين داخل السجون عندما تسجل القنوات حديثاً معهم.

شَحبَ لون وجه كريم وتحول إلى الأصفر، لمحت عينيه والدمع يترقرقَ داخلهُما يستحي أن يفيض من الخوف، شبك أصابعه من التوتر، ثم لاحظ أنني أرقب توتره فحاول التماسك، ثم أمسك بكوب الماء وأصابعهُ ترتعش، وجهَ يده صوب فمه، وارتشفَ منه وشفاهُه ترتجف مثل أصابعه حتى أسقط الماء على قميصه وبللهُ.

نهضت من مجلسي وأعطيتهُ منديلاً كي يجفف نفسه والتقطت منه كوب الماء واضعاً إياه فوق الطاولة، وقلت:

_لا عليك يا صديقي، لا تجعلني أُؤنب نفسي لأنني اخبرتك بهواجسِ عقلي، دع عنك كل هذا الذعر الذي يجتاح نفسك، هذه مجرد هواتف يصنعها خيالي، وكابوس صنعه شيطاني و...

_لا، ليست هواجسَ، ولا اصطناعاً، لقد رأيت هذا الكابوس أيضاً، كذبت نفسي كثيراً، وقلت لنفسي؛ لا عليك، هذا مجرد وهم صنعه الشيطان، لكنني لم أخبرك بشيء، الآن أجدك تقص عليّ ما قد رأيتُه بكامل حذافيره!

قالها كريم مقاطعاً لحديثي، وهو ما زال يرتجف، فذهبت

صوب الباب وفتحته، طلبت من عسكري مكتبي أن يحضر لكريم مشروباً من عصير الليمون حتى يهدأ قليلاً، أغلقت الباب ثانيةً ودنوتُ من مجلس كريم، ربتت على كتفه براحة يدي اليمنى وأنا أقول:

ـ إذن؛ دعني أقص عليكَ كل شيء من البداية.

أومأ برأسه، واعتدل في مجلسه، ثم حدق بي وبدا عليه التركيز الشديد، فقلت:

ـ استقبلنا اتصالًا يفيد بأن هناك شابًا فقد حياته داخل إحدى بنايات (شارع عباس العقاد) الضخمة الواقعة في مدينة نصر، تحركنا على الفور، فوجدنا ما تم ذكره مسبقاً؛ شاب، بدا على جثته سبب الوفاة، ألا وهو الانتحار، لم نجد أية بصمات أو أدلة تؤدي بنا إلى شيء مهم، ثم جاء تقريرك الذي يؤكد ذلك، لذا آلت القضية للحفظ، وأثناء التحقيقات استدعيت كل من لهم صلة بسيف، وجاءت والدة المتوفى السيدة (وفاء) في المرتبة الأولى، كنت أجلس على هذا الكرسي ودخلت هي بعد أن أذنت لها؛ سيدة في سن الثانية والخمسين من العمر، وبرغم الثراء الذي تعيش فيه إلا أنها تتمسك ببعض من مظاهر حياتها قبل ذلك الثراء، تلبس عباءة سوداء من الحرير، مرصعة بحُلى معدنية لها لمعان أخاذ للعين، الذهب يتناثر أعلى ذراعيها وعنقها، تلونت أظافرها بألوان زاهية كبناتِ في عمر المراهقة أو آنسات لم يتزوجنَ بعد، تجاعيد السِن تظهر على قسمات ملامحها رغم محاولاتها الجبارة المبذولة لإخفاء هذه التجاعيد تحت كُتل من مساحيق التجميل، ربما ينخدع آخرين بذلك، لكنني

لا أُخدع أبداً، كانت تشبه هؤلاء النسوة اللاتي يزحفنَ علينا من دول الخليج، يعانينَ من وهم الشباب في سن متأخرة، جلست، فسألتها، فأجابتْ، ومع كل سؤال وجهتهُ لها، استشعرتُ ثقة طاغية وسرعة جبارة تُجيب بها أسئلتي، الهاتف كان ينبض بداخلي، يصرخٍ ويشير إليها بكل أصابع الاتهام، لكن؛ أنى لي اتهامها علناً وهي لا يُدينها شيء!

حينها قطع حديثي دق الباب، أذنتُ بالدخول، فجاء العسكري ووضع عصير الليمون البارد فوق الطاولة أمام مجلس كريم، وانصرف، فأردفتُ أقول:

ثم جاء دور عمر الدمرداش؛ صديق سيف المُقرب، شاب كهل، يبلغ الثاني والثلاثين من العمر، طويل القامة، معتدل البنيان، له قوام رياضي، كث اللحية، يملك ملامح مصرية بحتة تتمتع بقدر لا بأس به من الوسامة، عندما وجهت له الأسئلة، كانت تتملكه عدة أحاسيس مختلفة، ما بين التوجس والحزن، شعرت أنه تائه، يفكر ملياً قبل أن ينطق لسانه بأي كلمة، متوتر دائماً، وكان هذا ما أردته، أحببت أن أُمطر عقله بوابل من الأسئلة التي تجعله في هذه الحال طيلة وقت الاستجواب، أذنت له أن يُدخن، أتذكر أنه قضى على علبة سجائرهُ كاملة في مدة لا تتجاوز الساعتين! نبض داخلي هاتفي الخاصٍ، ومن هنا نبتت فكرة مراقبته، ثم عاد اللقاء بيننا مجدداً بعد موت أمه، وعاد هاتفي الداخلي ينبض ثانية، إذ وجدته أكثر توتراً وحيرة، تائهاً كما لو أنه طفل انتقل من الريف للعيش في وسط المدينة الصاخبة، هنا لمعت بداخلي فكرة مراقبته وأكدها نبض هاتفي الخاص،

خصيصاً أن الأمور آلت إلى لا شيء، لا أدلة تُدين أحدًا، من جانبي وجانبكَ، أخبرني؛ هل هدأت أعصابك الآن؟

_نعم، وأريد منك ألا تتوقف عن الكلام، أطلب منك أن تخبرني بكامل التفاصيل، ولا تتوهم أنك تُطيل الحديث، كلي آذان صاغية.

قالها كريم بنبرة مولعة بالمعرفة، رأيت أذنيه تلتهم الكلام مني التهاما، كمفترسٍ لم يذق جوفه الطعام منذ سنة!

هناك قاعدة أنا مُبتكرها تقول:

«عندما يطول مجلس الحديث يستحسن في هذه الحال إشعال سيجارة»؛ لذلك أشعلت سيجارة أخرى، لا أتذكر إن كانت ثالثة أم سابعة، للدخان رائحة منعشة تدفعني للثرثرةِ، ثم قلت وأنا أنفثُ الدخان في خط مستقيم:

_ تداخل الخطان، خط الاستجواب مع خط الكابوس الذي راود منامي طيلة الفترة ما بين موت سيف وموت والدة عمر، حينها توقف عن مهاجمتي، ثم تطور ليكون حقيقة، دعني أكمل لك ما حدث لي بعد تلك الليلة التي راقبت فيها عمر؛ وصلت إلى بيت أمي يتصبب العرق مني كما لو أنني خرجت للتو من البحر، وعندما فتحت لي أمي الباب ورأت قميصي المبلل، شهقت! لم أستطع أن أبوح لها، ماذا سأقول أصلاً؟ كذبت عليها وقلت لها أن قدميّ انزلقا فسقطت في بركة ماء خلفها ماء الصرف، ثم دخلت إلى الخلاء لأغتسل، ألقيت بنفسي تحت صنبور الماء، حينها حاولت أن أربط كل

الأشياء ببعضها، وأُخمن ما سوف يحدث، لكنني فشلت في فهم أي شيء!

قتيلين بنفس الطريقة، لا أدلة، كابوس لا يُطاق، أفكار مشوشة، ثم يظهر ظلاً ليزيد الطين بلة، سأقول لك شيئًا لن تصدقه يا كريم، لكنني لن أخفي عليك، خطرٍ ببالي حينها حكايات الجن والعفاريت التي كانت تردد قديماً داخل الحي الشعبي القديم الذي سكنته في طفولتي، شعرت أن هناك تدخلاً خفياً في هذه الأحداث من قبل العالم الآخر، ولا أخفي عليك أيضاً، هذا الشعور يكبر بداخلي، أن هناك سحر أو جن أو شيء من هذا القبيل.

بعد الاغتسال ذهبت إلى النوم، مرت هذه الليلة بسلام، وفي اليوم الثاني للمراقبة، حصلت على نفس النتيجة؛ لا شيء يذكر، حياة اعتيادية لشاب تائه فقد أمه، يجلس داخل المقهى شاردًا لساعات دون أن يتحدث مع أحد، تحرق السجائر صدره كما احترقت روما عندما أضرم نيرون بها النار، أصابني الملل، فرجعت إلى منزل أمي، اغتسلت، ثم حظيت بوجبة عشاء من أيدي أمي، وذهبت إلى غرفتي كي أنام، وضعت رأسي على وسادتي، وكان نظري صوب باب الغرفة المغلق، أغمضتُ عينيّ، فساد الصمت لدقيقة، وكسرهُ أزيز الباب!

فتحت عينيّ مرتعداً، فوجدت الباب يُفتح ببطء، ظننت أنها أمي تمارس عادة الأمهات التي لا تفنى أبداً بالاطمئنان ليلاً عليّ، ولكن خاب ظني!،

فُتح الباب كاملاً ولا أحد خارجهُ! لم أستطع إبداء أية ردة فعل، إذ رأيت ظلاً يدخل من الباب! حاولت جاهداً أن أتحرك دون جدوى، شعرت أنني مُكبل، يحكم آلاف الرجال الأشداء قبضتهم علي كامل جسدي، ارتعدتْ فرائصي، وارتجف جسدي، ثم أُغلق باب الغرفة عنوة، واختفى الظل، لأجد نفسي أصرخ كما الأطفال!

جاءت أمي تهرول خائفة، كما لو أنها بنت في العشرين من عمرها، تستغفر وتستعيذْ، اقتربت مني، ووضعت كفها فوق رأسي وهي ترتل سورتي الفلق والناس، وصراحةً؛ اطمئن قلبي في وجودها، وشعرت أنني طفلًا لم أعبر السادسة، لكن ما هذا الظل؟ وماذا يريد أن يقول لي؟ شعرت أنه يُحذرني ثانيةً، داهم عقلي الكابوس، فشعرت للحظة أنه لربما يتحقق وأصبح في عداد الموتى.

قبلت كف أمي وطلبت منها أن تخلد إلى النوم، كان هذا كابوساً أو ربما داهم منامي الجاثوم، على أية حال؛ أنا بخير، رَمقَتني بنظرة حنون وذهبت إلى غرفتها، ولا أعرف كيف نمت! بل إنني بمجرد أن خرجت أمي، غبتُ عن الوعي!

وفي اليوم الثالث تكرر نفس الشيء، فاتخذت قراري أن أوقف المراقبة وأسند المهمة إلى أحد المخبرين، وأعودُ إلى منزلي مرة أخرى خوفاً من أن يصيب أمي أي مكروه، لم أستطع طرد الموضوع خارج عقلي بالكامل، ثم جاء اتصالك بي، خمنت أنك تريد أن تتحدث معي بخصوص القتيلين، هاتفي الداخلي الخاص أنبأني بذلك، لذا عدت أنظر في

ملف عمر مرة أخرى، حتى نتقابل وأستمعُ إليك.

من يومها كل تقارير المراقبة تثبت ما ذكرته لك قبل قليل، أن عمر هذا سكير، يصاحب بائعات الهوى، وهذا عكس ما وجدته عليه، هل كان يشعر أنني أتبعه، أم هناك شيئًا آخر؟ هذا ما يجعل شكي في محله!

نهض كريم من مجلسه، ودنا مني واضعاً حقيبته الشخصية أمامي فوق سطح مكتبي، وضع يده داخلها وأخرجها ممسكاً بدفتر صغير أو بالأحرى مُفكرة لتدوين اليوميات أو الملاحظات، وضعها أمامي وأخذ يفر ويقلب صفحاتها، حتى أشار لي على صفحة منها، كان بها رسم لذلك الظل الذي رأيته مسبقاً!

عاد إلى الكرسي مرة أخرى وجلس كَمحاربٍ أنهكتهُ الحرب، ثم قال:

_كل ما قمتَ بالحديث عنه، حدث طبقاً للأصل معي، رأيت الكابوس بكامل تفاصيله، ظل يحتل منامي حتى موت السيدة ثم اختفى، وحدث ما حدث في ليلة تشريح جثتها، والآن نحن هنا، نواجه شئ لا نعرف ما هو أو ما هي ماهيتهُ، هذا أقرب للجنون، بل.. هذا هو الجنون بعينه»....

******

كرم

عدت إلى البيت، أجُر أذيال الإحراج خلفي، لكن، عليّ أن أحاول ثانيةً، مهما حدث سيظل عمر صديقي، وتلك

الصداقة تحتم عليّ أن أظل بجانبه عندما ترهقه المتاعب، ولا ظرف يستحق ذلك أكثر من هذا الذي يمُر به عمر.

لم أشعر بالنعاس بعد عودتي إلى شقتي، لذا دلفتُ إلى الشرفة بعد ما صنعت كوباً من القهوة، ستار الليل سيُزال قريباً، وتَسدلُ الشمس أشعتها على الأرض، الهواء عليل، منعش، وبينما كنت شارداً أفكر فيما يحدث، سمعت صوت زجاج ينكسر بالداخل!

هرولتُ مسرعاً إلى مصدر الصوت، كان يأتي من غرفتي، فلم أجد أي أثر للزجاج! كل شيء كما هو، لكن فجأة ظهر شيئاً لا يصدقه عقل في المرآة، حينها تيبستُ في موضعي! إذ رأيتني أقف داخل المرآة أنظر إليّ خارجها بنظرة شر لا مثيل لها، كانت عيناي جاحظتين ينهمر منهما سيل من الدماء، ملامحي كملامح الموتى، لوني أصفر شاحب يختلط مع الأزرق كما لو أنني مِتُ مختنقاً!

كذبت عينيّ، أنى لي أن أرى مثل هذا! تسارعت نبضات قلبي، وشعرت أنني أختنق، كأن هناك أيدي تلتف حول عنقي وتحاول تحطيم قصبتي الهوائية، قاومت كما لو أنني أرى الفاعل، وعندما شهقت، هرولتُ خارجاً، حاولت أن أتصل بعُمر وفشلت بسبب مشاكل الشبكة، كنت أشعر أن ما يحدث بسبب عمر، لا أعرف لماذا داهمني ذاك الإحساس؟ ما يمر به عمر غير منطقي بالمرة، لذلك كان من المنطقي التفكير فيما هو غير منطقي!

اتصلتُ بإسراء، وشرحت لها ما كان، وأثناء المكالمة كنت

أشعر أن هناك شيئًا يحيط بي، ألمح بطرف عيني خيالاً أو ظلاً يجوب الأرجاء، صوت أنفاس في أذني، كانت تشبه أنفاس ثيران حلبة المصارعة عند الأسبان، أخبرت إسراء قدر الإمكان بما أشعر به ويحدث حولي، كانت نائمة لا تدرك جيداً، تسمعني كأنها مغيبة، انتقل لي شعوراً أنها تحسب نفسها تحلم، لن يجدي ذلك نفعاً، فأغلقت المكالمة وقررت أن أجد إجابة لما يدور حولي، كان صوت الأنفاس مازال ظاهراً، أسمعه جيداً وجسدي يرتجف، ارتفعت درجة الحرارة، كان العرق يتساقط من جبهتي ويغطي عينيّ، دلفتُ إلى غرفتي مرة أخرى، حينها أغلق الباب عنوة، رأيتني مجدداً أقف داخل المرآة في نفس الوضع، كل ما تبدل أنني أحكم قبضتيّ على عنقي!

سعلتُ، وتنفست بصعوبة، حتى شُل جسدي بالكامل فلم أستطع المقاومة، شعرت بالدماء تسيل من أنفي، بالكاد أرى، ثم نفذ الهواء من رئتيّ، وسقطت أرضاً!

******

إسراء

لقد ثقل رأسي، شعرت بصداع يحطمه، كأن شخصاً يمسك بمطرقة ويدقُ بها داخل أرجاء دماغي، وفجأة رأيت كرم يقف أمام المرآة، لم تنعكس صورته داخلها، بل كان هناك ظل أسود قاتم اللون، له عينان سوداويتان، تلمعان كالفضة، كان يخنق نفسه فيتألمَ كرم، شحبَ لون وجههُ، وسَعلَ بشدة حتى خرجت الدماء من أنفه وفمه، جحظتْ عينيه، ثم سقط

أرضاً، حينها عدت إلى نفسي مجدداً.

_ لقد مات كرم يا إسراء، مات وأنا السبب كالعادة، مات ولم أستطع فعل شيء من أجله بينما كان هو يريد أن يفعل كل شيء من أجلي، هل فهمتي لماذا كنت أبعدكِ عني؟ الكلٍ موتى يا إسراء، كل من أحببتهم، كل من أراد لَي وبي خيراً يموت، هل تريدين أن تموتي؟

قالها عمر وكأنه نهراً يفيض بما يزيد عن حاجته، كان في قمة الغضب واليأس والحزن، قالها ثم فاضت عيناه بالدموع، جلس على كرسي مكتبه، وهو مائل إلى المائل وقد أسقط رأسه بين كفيه.

اقتربت منه، وربتت على كتفه، قلت:

_ البقاء للّه وحده، إنه القدر يا عمر، لا نستطيع منعه أو تغييره، ولذلك قد نسيت ما جئت لك من أجله، أنساني اللّه ذلك حتى يأخذ القدر مجراه، لا أريد أن أقحم «لو» في الحديث، فـ «لو» هي الشيطان نفسه.

رفع عمر رأسه ونظر إلي كالطفل الذي لا حيلة له، وقال بنبرة شجن:

_أصبتِ، لكن ربما إن واجهنا أنفسنا وقمنا بتغييرها ورجعنا لَطريق اللّه، سيتحول كل شيء للأفضل، قلت ربما لأن هنالك احتمال ألا نستطيع تغيير شيء، لكننا فعلنا الصحيح، فإذا كان اللّه يريد ذلك، فلنا الرضا ثم الرضا ثم الرضا إلى أن تفنى أرواحنا، لقد ساعدني كرم بالفعل،

ساعدني بحياته وروحه، لم يبخل عليّ أبداً، لذلك لا بد أن أتعلم من الدرس وأقفْ في مواجهة من قتل سيف وأمي وكرم، شبحاً كان أو بشرًا، سوف أتصدىَ له حتى وإن كانت حياتي هي المقابل، لن أعود إلى طريق الشيطان أبداً، بل سأعود إلى الله مجددا.

قام من مجلسه وتوجه إلى الحمام، فغمرتني فرحة عارمة، أخيراً استفاق عمر من غيبوبته، عاد إلى نفسه الطيبة مجدداً، كنت أقول لنفسي دائماً أنني أعرف عمر جيداً وقد صدقت القول، وأقول أنني أعرفه جيداً مرة أخرى وسيعود أقوى من أي وقت مضى.

عاد عمر مرتدياً ملابسه وأشار لي أن أتبعه، هبطنا إلى الشارع وقد أخبرني أننا سنذهب إلى بيت كرم، لا بد أن يكون بجانبه حتى وإن فارق الحياة، سألته:

_ كيف رأيت مشهد موت كرم؟

قال:

_هناك ما يملك أخذه إلى ما يريده رغماً عنه، هناك شبحاً يتقمصه.

كنت أعرف الجواب جيداً، لكنني سألته حتى أتأكد، هل عمر عاد إلى نفسه فعلاً ويعي ما يدور حوله، أم ذاك الشبح لا زال يحكم بأحكامه! لكن لقد أثلج صدري جوابه .

تبدل داخلي الشعور بالفرحة إلى الحزن عندما وصلنا إلى بيت كرم، إذ أنني وجدت أن الناس قد احتشدوا أسفل

البناية، حضرت الشرطة، ورأيت في وجوه المحتشدين علامات الاستفهام، يضربٍ كل منهم كفيه من الذهول حول موت كرم، فقد شاباً يافعاً فقد حياته منتحراً، ما أقسى الحياة والظروف، هذا ما سمعته وكان الناس يتبادلونه فيما بينهم.

صعدنا إلى شقة كرم، ووجدنا الشرطة بصحبة فريق البحث الجنائي في استقبالنا ، قال وكيل النيابة لعمر:

_أهلاً بك، من الأفضل أنك جئت، لقد اختصرت عليّ الوقت، تفضلا.

******

عمر

كان للسيد صالح وكيل النيابة نظرات شكٍ نحوي في السابق أعرفها جيداً ، والآن تتزايد ، أراه يحدق بيً ولسان حاله يقول أنني قاتل، أو على أقل تقدير لي يد في جميع الجرائم، لكن كلانا يعلم أنني لا علاقة لي بذلك، نعم كلانا؛ أنا وأنت عزيزي القارئ، لقد اصطحبتك معي من البداية، وأنت تعرف جيداً أنني بريء من كل ما تحمله نظراته لي، بريء كبراءةِ الذئب من دم يوسف، لقد رأيت معي ذلك الظل، ربما شعرتَ به حولك مثلي، ربما إذا دققت النظر حولك جيداً تراه بالجوار يسكن زاوية غرفتك، نعم ربما، لا عليك ولا تخف، لا دليل معنا لإثبات صحة نظرات الشك الواقعة عليّ، ولا ضدي أيضاً!

لاحظت إسراء معي ما تبوح به نظراته إليّ، فرمقتني بنظرة دهشة، وتقدمنا صوب مجلسه بعد ما أشار لنا أن نجلس أمامه، بعدها سألني عدة أسئلة:

_متى آخر مرة رأيت بها كرم؟ وهل كان لكرم مؤخراً أية مشاكل نفسية تدفعه للانتحار؟ وهل لكرم أية خلافات مع أحد الأشخاص؛ مادية كانت أو اجتماعية؟

والكثير من الأسئلة على نفس الشاكلة، أجبته على جميعهم؛ بأن كرم شخص مهذب، سوي، ليس له خلافات، ولا يترك فرضاً، يصوم ويصلي ويمتلك مكتبًا هندسي صنعه من الكد والكفاح.

حينها، اقترب منا رجلاً، كان يرتدي قفازاً طبيًا، وبنطالاً كلاسيكياً، وقميصاً تظهر (ياقتهُ) من تحت سترتهُ الصوفية، عدل وضع نظارته الطبية فوق أنفه، وامتلأت جبهته بقطراتِ العرق، حتى بدا عليه التوتر الشديد!

رمقني بنظرات خوف وحيرة، وهو بالكاد يستطيع بلع ريقه، وما إن بدأ بالكلام حتى تأكدت أنه يتملكه التوتر والتوجس، حيث قال وهو يتَلعثم:

_ نفس نتيجة المرتين السابقتين مبدئياً يا سيد صالح.

خلع قفاز يده اليمنى، ودس كفه الخالية من القفاز في جيبه وأخرج منه منديلاً، جففَ العرق الذي ازداد وأصبح يغطي جبهته بالكامل وتنزلقُ قطراتهُ من جبينه، واتسعت عيناه من الخوف، توتر أكثر، لا يستطيع التحكم في العرق،

كف يده ترتعش، كان ذلك ملحوظاً جداً، وهذا أجبرني أن أنهض وأترك له مجلسي حتى يستريح، شعرتُ أن ساقيه بالكاد تحملانه، وأيقنت أنه الطبيب الشرعي.

سيطر على وكيل النيابة إحساس مماثل لما شَعرَ به الطبيب، اتسعت حدقتاهُ، وافترقت شفتاه، وفتح فمه من الدهشة، نظر إلينا ودون أن ينطق بكلمة، أشار لنا أن نذهب أدراجنا من حيث جئنا، بدا على ملامحه الحزم والشدة والصرامة، تعلقت إسراء بذراعيٍ، ثم عدنا إلى منزلي مرة أخرى، ولم يملك أحد منا تفسيراً، ولا إجابة منطقية واحدة، لكن تبقى هناك إجابة وحيدة داخل صدورنا، أو بالأخص داخل صدري أنا، هنالك قوة خفية من عالم آخر تُسير الأحداث!

******

الفصل السادس.

«عودة إلى النفس»

صالح

أنهى كريم حديثه، وحينها دق جرس الهاتف الداخلي، وهذا ينذر بأن هناك كارثة جديدة في طريقها إليّ، بمجرد أن قمت برفع السماعة ووضعها على أذني اتضح ذلك؛ حيث قال المتحدث:

انتحر شاب يافع يقطن منطقة عابدين، عليك التحرك فوراً.

أغلقت المكالمة بعد ما أملىَ المتحدث عليّ كامل التفاصيل، نظرت إلى كريم وسيطرت عليّ نوبة من الضحك الهيستيري، ظل يرمقني بنظرات دهشة، فقطعتُ دهشته قائلاً:

_ لقد مات شاباً يسكن بالقرب من منزل عمر، لقد كُتب عليّ عمر هذا وكأنه أحد أفراد عائلتي، هيا يا صديقي العزيز لنذهب إلى هناك، حيث موعدنا مع الجنون والحيرة والدهشة، أحضر حقيبتك.

بعد حوالي ما يقرب من ساعة، وصلنا إلى أرض الموتى، هكذا سميتُ المنطقة التي تعج بالقتلى، الشرطة تطوق المكان، احتشد الناس بالأسفل، أما في الأعلى فكان هناك

عويل وحزن وبؤسٍ سيطروا على ذوي كرم الراحل في ريعان شبابه، صراحةً؛ كم هذا مؤلم جدا، لمعت قطرات الدمع في عينيّ دون إرادتي عندما وجدت والدة كرم تجلس بجانب جثته وقد كشفت عن وجهه، تمسح بأطراف أناملها فوق جبينه، ترتل القرآن، وصوتها مُثقل بالبكاء، تحاول حبسِ الدموع بعينيها، إلا أن الحزن يأبى ذلك، يسيلُ الدمع تاركاً أثره على وجنتيها لأكثر ذكرى مميتة في حياتها، يحفر طريقه كعلامة تشهد على كمد وصبر هذه المرأة.

تركتها تفعل ما تشاء حتى تُبرد نار قلبها، وجلست بجانب كريم وقد فقد كل منا قدرته على الكلام، ننظر إلى السيدة، ونسمع نحيب صوتها بقلوب تتمزق، وبعد دقائق أعادت الغطاء على وجه المتوفى ونهضتْ من مجلسها، مسحت الدمع من عينيها، ونظرت إلينا وهي تحاول التماسك قائلة:

_مجلسكما يدل على مكانتكما، أرجو منكما أن تحسنا إلى أخيكم الذي رحل، أنا جاهزة لأي سؤال.

قلت وأنا أكتم الدمع:

_ البقاء للّٰه يا أمي، إنا للّٰه وإنا إليه راجعون، لن أثقل كاهلكِ بالأسئلة، فقط؛ ماذا حدث؟

_لم أكن هنا، كنت أبيت عند ابنتي في منطقة الدرب الأحمر، وبعدما عدت إلى هنا، وجدت ما ترونه أمامكما، لا علامات تدل على أي شيء، الباب كان مغلقًا، دخلت بطريقة طبيعية حتى لا أوقظ كرم، لأنني أعلم أن هذا يوم

إجازتهُ، و...

لم تستطع أن تتمالك نفسها، تاه منها الكلام وبعثرَ الحزن نفسها، ومزق ألم الفراق قلبها، دنوتُ منها وسحبت ذراعها برفق، أجلستُها موضعي وأمرتُ أحد العساكر أن يأتي إليها بمشروب يهدئ من روع حزنها، فرفضت، وطلبت مني أن أسمح لها بالانصراف، فوافقت، وأمرتُ أحد العساكر أن يأخذها بسيارة الشرطة إلى أي مكان تريده.

كان لوالدة كرم المتوفى ما أرادت، شرع كريم بعمله وتفحص الجثة، بينما راقبت أنا الأوضاع، مشيت داخل الشقة أتفحصُ كل ركن فيها، وطلبت ألا يرافقني أحد، لا وجود لأية أدلة تقودنا إلى معرفة ما حدث، لا بصمات، لا كسور، لا عنف، لا سرقة، لا مقاومة من المتوفى، لا أعرف تسميته، هل أقول المتوفى، أم القتيل، أم الراحل!

عدت إلى مجلسي وقد أحضر لي أحد العساكر قهوتي الخالية كالعادة من السكر، تذكرت أول مرة تذوق فيها لساني طعم مرارة القهوة، وفهمت أن ثمة أشياء في الحياة، أبشع من طعم القهوة الخالية من السكر! إنه التأقلم، صدق الذين قالوا أن النسيان نعمة.

دقت نبضات هاتفي الداخلي تنبئني استشعاراً ما، ثم ظهر عمر بصحبة خطيبته!

ما الذي جاء بهما إلى هنا؟ هل يصبح شكي في محله ويكون لهما يد في موت الثلاثة؟ كنت أفكر جيداً فيما سوف

أقوله، إذ أنه لا يوجد أي دليل يدين عمر نهائياً، ولا يسعني أن أُوجه له أي اتهام، وفي ذات الوقت ليس هنالك ما يكذب شكي!

تحكمت في لساني لئلا ينطق بما ليس لي به حق، لكنني فشلت في أن أخفي نظرات الشك تجاههُ، وجهت له بعض الأسئلة الاعتيادية، وكانت إجابته في نفس السياق، حينها قطع علينا مجلسنا الطبيب كريم، وقد شحبَ وجهه، يرتجف جسده، والمناديل الورقية الخاصة به لم تستطع أن تصمد في معركتها ضد عرقه الناتج عن الذعر، قال وهو يتلعثمْ كعادته كلما أحس بخوف:

_نفس نتيجة المرتين السابقتين مبدئياً يا سيد صالح.

هنا جلست مدهوشاً، ذهلت كما لو أنني رأيت كرم يموت أمام عينيّ، أحسست أن رأسي يدور، تشتت عقلي، وشرد ذهني، أشرتُ لعمر وخطيبته أن يعودا من حيث جاءا، وبعد أن مشيا، جاء لي أحد أفراد الشرطة وفي يده هاتف خلوياً (موبايل)، ثم وقف أمامي وقال:

_هذا الهاتف الخاص بالقتيل، ربما تجد عليهَ شيئاً يفيدكَ في رحلة البحث عن الجاني.

أخذته منه، وألقيت نظرة سريعة عليه فوجدت الهاتف ليس له رمزاً سرياً، نقرتُ أعلى شاشته ونظرت إلى سجل مكالمات الهاتف، وهنا انتاب عقلي الجنون، وثبتُ من مجلسي واتسعت عيناي من الدهشة؛ إذ وجدت آخر مكالمة

صادرة من هاتف كرم قبل موته كانت مع إسراء، وإسراء كما تعلم جيداً وتقرأ معي من البداية هي خطيبة عمر!! إذاً؛ ما العلاقة التي كانت تجمعهما ببعضهما البعض؟ هل هي الخيانة؟ أم كان كرم يعلم ما يدبرهُ له عمر؟ أم أن ذلك الظل كان هنا!

يا إلهي، لقد فاض الطين بالمياه، حتى أنني أشعر وكأنَني غرست في الوحل من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ.

تحليتُ بالصبر حتى أنهى كل ذي عملٍ عمله، رافق كريم الجثة إلى المشرحة، وعدت أنا إلى المَكتب حتى أستطيع التفكير جيداً.

جلست وأتى العسكري الخاص بمكتبي حاملاً قهوتي الخالية من السكر، طلبت منه ألا يخبر أحدًا مهما كان هو، أنني هنا إلا فقط كريم الطبيب الشرعي، فأومأ برأسه ثم انصرف.

رغم مرارة هذه القهوة وسُمعتها إلا أن لها طابعًا خاصًا يمحي ويَردَع (الصداع)، إلا أن هذا لا يجدي نفعاً، وكل ما أخذته منها هي المرارة فقط!

أشعر أن تسونامي قد انتهى في جنوب شرق آسيا وانتقل داخل رأسي على هيئة صداع! على أية حال؛ لا بد من المواصلة.

أخرجت الهاتف من جيبي، وأخذت أبحث داخله عن أي شيء يثلج قلبي، ثم حدث ما لم أتوقعه؛ إذ وجدت داخل هاتف كرم تسجيلاً للمكالمات، لا أعرف إن كان هو من قام

بذلك عمداً أم أن الهاتف يفعل هذه الخاصية تلقائياً؟، لا يهم الآن، قمت بتشغيل آخر التسجيلات.

_أعرف أن الوقت غير مناسب لكن، لا وقت للشرح وتقديم اعتذار الآن، أنصتِي جيداً، حاولت كما أخبرتكِ في السابق أن أساعد عمر ليعود لما كان عليه، حتى رأيته منذ ساعتين تقريباً داخل المقهى، كان غريباً أكثر من أي مرة قابلته بها مؤخراً، بدا طبيعياً جداً وهذا ما جعل القلق يتملكني، وما حسبته وجدته، إذ فجأة تبدل كلياً، وتَركَني ورحل، عدت إلى منزلي وأنا مصمم أن أكمل طريقي لمساعدته دون هوادة، وجلست أفكر فيما سوف أفعله من أجله، فسمعت صوت زجاج يتكسر، وعندما وصلت إلى مصدر الصوت لم أجد شيئاً، ارتجف جسدي وارتعدت فرائصي، لذا اتصلت بكِ، والآن أشعر وكأنَ هناك من يراقبني، أشعر بصوت أنفَاسه يحيط بي، هناك ظل يجوب الأرجاء، ظل له انعكاس بشع، أو بالأحرى هو ظل ولكنه لا ينعكس فوق الجدران، بل يظهر وكأنه شيء حقيقي كهيئتنا، لكنه ظل!

أشعر بخوف شديد لم أشعر به من قبل، حاولت أن أهرب لكنني وجدت باب الشقة مغلقًا ،و بالكاد أشهقُ وأزفرْ كما لو أنني أختنق، إسراء؛ عليكِ أن تُخبري عمر، قولي له أنني كنت أحبه وحاولت أن أساعدهُ لطالما استطعت، لكن هناك قوة خفية لا أستطيع أن أقف أمامها، كوني بجانبه مهما كلفكِ الأمر، حتى وإن قدمنا أرواحنا كثمنٍ، فاللصداقةِ والمَحبة حق؛ حق أولى أن يتبع، ربما نخسر جولاتٍ عدة فيَ

معركتنا الأزلية ضد الشر، لكننا سنفوز في جولة تُمحي كل آثار الهزيمة.

كان هذا التسجيل الأخير لكرم قبل موته! تحدث كظبي مذعورٍ يُطارد من قبل وحشٍ مفترس، بل كما لو أن ذلكً الوحشً أحكم قبضة فكيه علىً عنقه، أنفاسه كانت متهدجةً، بالكاد ينطق الكلام بشكل صحيح، شعرت بإحساسٍ مماثل لما كان يشعر به، لذا أشعر كم كان جسده يًرتجف، والسرعة التي كان يخفق بها قلبه، وترسخ في عقلي فكرة واحدة فقط، هي بالطبع جنونية، لكنني سأكررُ عليك قولي مجدداً، نعم؛ أنت أيها القارئ، أنت معي من البداية وتعلم أن كل ما مررنا به معاً كان جنونياً، والآن إذا قلت لك، أن كل ما يحدث يعود إلى قوة خفية من عالم آخر، بالطبع ستصادقُني القول، بل هي قوة خفية تأتي من عالم سفلي، يتحكم فيه وبه الجن والسحر والشياطين، لا تفسير أكثر منطقية من ذلك، ولذلك لا أجد سوى أن أتبع هذا الخيط، إما وجدت حلاً، وإما لقيتُ نفس مصير الموتى السابقين!

******

عمر

وصلت إلى بيتي بصحبة إسراء، واستحوذ على عقلي ومُخيلتي السيد صالح وكيل النيابة وهيئته، له هيبة غريبة، ذو وجهٍ طويل، أصلع الرأس، حليق اللحية، كث الشارب، يتخطىً وزنه المئة كيلوجرام، ويقترب طول قامته من المترين، تساءلت بيني وبين نفسي:

_ماذا لو سلك هذا الرجل طريقًا آخر، وقذفتهُ الدنيا بين أيامها وامتهنَ المحاسبة أو الطب مثلاً؟ لا يُهم، يمتلك المرء منا أحياناً تفكيراً عقيماً لا فائدة منه.

جاءت إسراء تحمل قدحًا من الشاي ووضعته أمامي، جمال إسراء طاغي بدرجة لا يتخيلها أحد، جمالها له وجهان، كالعملاتِ الذهبية تماماً، الوجه الأول هو الجمال القاطنِ بداخلها، فلقد وهبها اللّٰه أخلاق وأصل نساء العالم قاطبةً، تفهمني دون أن أنطقُ بكلمة، تشعر بما يدور بداخلي بمجرد نظرة، وتقف إلى جانبي كالعضد.

أما الوجه الثاني فلقد رأيته فيها دونًا عن غيرها من النساء، فهي في نظري أجمل نساء العالمين، وجهها مستدير كقرصِ الشمس، تشع الحرارة من وجهها، محمرة الوجنتين، لهَا عينين عسليتينِ تضيقانِ كلما ضحكت، وكلما ضحكت يزيد حبي لها، عندمِا رأيتهاَ أول مرة داخل مصلحة الضرائب، أحسست أن أزهار العالم أجمع تفتحت داخل قلبي، أحسست أنني أمتلك جناحين، وحلقت بعيداً عن الأرض، وأبحرتُ داخل عينيها، وبرغم مُضي عامين على خطبتنا، وعامينِ قبلهما في رحلة معرفتنا، إلا أنني كلما رأيتها، شعرت أنهاَ المرة الأولى.

كم أشفق الآن على تلك المسكينة، لقد عانت الكثير بجانبي، بل من الممكن أن تتحول المعاناة إلى الموت، لا أعرف، هل أطلق عليها أغبى نساء الكون أم أكثرهنَ نبلاً وعطاءً؛ لكن الأكيد أن قلبها الصافي وحبها لي يجعلان منها

أن تكون هكذا ، لكنني أحبها ، لذا أخاف أن أفقدها ، فيندرجُ اسمها داخل قائمة مَفقوداتي.

كانت عيناها شاخصة نحو شاشة التلفاز، شاردة الذهن، فقطعت عليها الشرود متسائلاً:

ـ كيف ومتى تواصلتِ مع كرم؟

قالت:

ـ لقد أخبرني أنه يحبك كأخ له، حاول كثيراً أن ينصحك، فلمٍ يستطع، لذلك عندما تًركت له هاتفك الذي لا تهتم أبداً أن تربطه بِكلمة سرية، أخذ رقمي من عليه واتصل بي لنتعاون سوياً ونكون بجانبك، لكنني لا أتذكر ما قاله لي ليلة أمس، بالأحرى كنت في حالة من الغثيان، بالكاد أتذكر أنه اتصل بي وقال «اذهبي إلى عمر» بنبرة يسيطر عليها الخوف والجدية أيضاً ، لم يكن يُخيل لي أنه سيموت! لكن قل لي؛ ماذا عن صديق السوء، والنساء البغايا؟ هل ما أخبرني به كرم صحيح؟ أرجوك قل لا ، أرجوك.

أخرجت سيجارة من علبة سَجَائِري، وأشعلتُها، ثم نفثتُ الدخان بضيقٍ شديدٍ ، وقلت:

ـ بلى، لقد صدق كرم، لكنه ليس أنا ، تتذكرين ما حدثتني عنه مسبقاً أنه جاء إلى منزلك وجلس معك بصحبة والدتك؟

ـ نعم، أتذكر، كان أنت ثم فعل أشياء غريبة جعلت قلبي يرتجف من الرعب.

- تماماً يا إسراء، هذا هو، ليس أنا، يتقمص هيئتي، أفعالي، صوتي وملابسي، لكنه ليس أنا، بدا للناس أنني انحرفتُ، خاللتُ إياد، ذلك الوغدَ الذي يشبه أنثى قبيحة متحولة، رافقت تلك التي لا أعرف اسمها، باغية تشبه المهرج صاحبة البطن المتدلي، أصبحت سكيراً، طالحاً، خسرت مكتب المحاسبات، تكالبت الديون عليّ، لكنني كنت أحاول التمرد، ثمة شيء داخلي يحذرني، تعلمين يا إسراء؛ كنت أشعر بوجود أمي، لازالت هنا لكنني لا أراها، أسمع صوتها، أحس أنفاسها تحاوطني، أتخيل أنها تعُد لي الطعام، تسبني كعادتها مازحة، ربما هذا كان الدافع الأكبر أن استرجع نفسي، إلى جانب يد العون والحب والصداقة منك ومن كرم، رحم الله كرم، وأمي، وسيف.

الآن دعيني أخبرك لماذا أطلقتُ على إياد ذلك الاسم، رأيته أول مرة داخل أحد الملاهي الليلة، كان يجلس إلى جواري على بار الملهى، جذبتني نظراته إليّ، حسبته شاذاً، فنظرت إليه باشمئزاز وضجر، حينها نظر إليّ النادل وقال لي أنه مُتكفل بكامل حسابي، حتى اقترب مني وقال:

_أراك منذ أسبوع تأتي إلى هنا بمفردك، لا تتكلم مع أحد، ولا تحبذ ذلك، أنا أيضاً وحيداً لا أملك أي أصدقاء، لم أودُ في بادئ الأمر إزعاجك، لكنني تشجعت عندما وجدتك تتردد يومياً على الملهى، لذا أمد لك يدي لنتعاهدَ على أن نصبح صديقين.

صدق القول، وأعجبتني طريقته، لم ألحظ فعلاً وجوده،

لم أكن أريد أن أذهبَ من الأساس إلى ذلك الطريق، لكنني أجبرت، زُج بي رغماً عني، رغم كل محاولاتي لردع نفسي أن تطأ حب هذه الشهوات، لكنني هنا، داخل ملهى ليلي، أنا الذي كان أكبر ما اقترفته معرفة البنات أيام المراهقة والتدخين، الآن أجد نفسي أجلس داخل ملهى ليلي، أشرب الخمر، وها أنا أُصافحُ رجلاً غريب الأطوار وأعاهدهُ أن نكون صديقي سوء!

ومع مرور الوقت، والصراع القائم بيني وبين نفسي وما يُخيل لي عن طريق أمي، والدعم المقدم منكِ ومن كرم، تبدت الحقيقة أمام عينيّ، رأيت حقيقةٍ إياد، رأَيته في هيئة أنثى قبيحة متحولة، بل هو كذلك فعلاً، عندما سألته عن مشيته التي تشبه تمايل النساء وحركاته وصوته الناعم، قال أنه ولدَ في هيئة أنثى قبيحة بخصائص الرجال، نُبذ من قبل أهله، ثم نبذه المجتمع، لذلك أخذ طريقه نحو الضياعٍ، فأطلقتُ عليه هذا اللقب، كان يعشق الخمر والنساء، يٍومياً تأتي إلى هنا باغية جٍديدة، لكن لا يختلف شكلها كثيراً عن من سبقتها، وأحياناً لا تأتِي واحدة بمفردها، بل تصطحب معها باغية تفوقها بشاعة، كنت أُجاهد نفسي بالرفض، مرة تلو الأخرى، حتى استطعتُ كسب المعركة، وبالأمسِ فقط، رفضت تماماً كل شيء؛ النساء والخمر، لكنني خسرَت كرم.

هنا مربط الفرس كما قال السلف، كلما استطعت العودة إلى نفسي فقدت عزيزاً، أستنتج الآن السبب وراء فقد أمي، لأنني حاولت أن أكشف حقيقة موت سيف، ثم فقدت كرم

لأنني جاهدت نفسي ألا تنجرف نحو الشهوات، ولكن يبقى السؤال الأساسي؛ لماذا مات سيف، وتبع موته كل هذا الخراب!

كانت إسراء تنصت لي بكامل تركيزها، كأنها تقلب كلماتي داخل رأسها وترتب الأحداث ترتيباً منطقياً، ثم قالت:

_يقودني حدس النساءِ إلى وضع علامة استفهامٍ حول والدة سيف، لم تظهر مُطلقاً منذ أن رأيناها سوياً عند النيابة العامة، لم تأتِ لتقديم واجب العزاء لكَ، بل لم تتصل بك حتى عبر الهاتَف! هل تُوافقني الرأي؟

_نعم، أوافق جداً، أنى لي ألا أفكر في ذاك الاتجاه! لقد أصبت يا إسراء، ارجعي إلى البيت الآن، وأنا سأذهب إليها، ربما أَجد عندها إجابة منطقية، أو حتى لو شيئًا بسيطًا، يساعدني في تفسير ما يحدث.

******

كريم

أقَلَتْني سيارة الإسعاف إلى المشرحة بصحبة جثة كرم، صراحةً! خفت أن أركب بالخلف وأجلس منفرداً وجهاً لوجه مع الجثة، لذا طلبت من السائق أن أجلس إلى جانبه، وأحمدَ اللّه أنه وافق، وبعد أن وصلنا، نقل رجال الإسعاف الجثة إلى الأعلى، حيث تقبع غرفتي الخاصة، التي تحوي داخلها غرفة التشريح، الآن عليّ أن أقوم بأداء عملي، ولأول مرة في حياتي، أندم على اليوم الذي وطأت فيه قدماي كلية

الطب، وألعنُ اليوم الذي اخترت فيه هذا التخصص، أقف شاخصاً البصر إلى جثة كرم، المُمددة فوق سرير التشريح من خلف النافذة الزجاجية، ترتعد فرائصي، وتتجمد الدماء داخل أوردتي، يخفق قلبي كما يخفق قلب الشاةِ إن رأت أختاً لها تراق دماؤها!

قلت بصوتٍ مسموعٍ، لمؤازرة نفسي:

_ما بك يا كريم؟ إنها وساوس لا أكثر، كف عن هذا العته، وقم بأداء واجبك نحو عملك، هنالك لغز أودى بحياة ثلاثة أشخاص، لا بد وأن تكشفه، وإلا، لن تستحق أن تكون في هذا المنصب من الأساس، لذا تشجع، وواجه مخاوفك، حتى لو كنت لا تعرف ماهية ما تواجه.

كان لهذا أثراً ايجابياً داخل نفسي، دنوتُ من حوض التعقيم، ثم دخلت إلى غرفة التشريح، أغلقت الباب، ووقفت بجانب السرير الذي يقبع فوقه جسد كرم البالي، مسكت مشرط التشريح، وأغمضت عينيّ لثوانٍ، وأنا أقرأ الإخلاص والناس والفلق، ثم تمتمتُ» أعوذ باللّهً من همزاتِ الجن والشياطين، أعوذ بك ربي أن يحضرون»، سميتَ اللّه، وشرعت في عملي، حتى وجدت ما توقعته، نفس سبب الموت في المرتين السابقتين، أزمة تنفسية، نتج عنها توقف القلب فجأة عن أداء مهام وظيفته، فسقط على إثرها كرم ميتاً من الخوف، هذا ما استنتجتهُ؛ استناداً إلى الذعر الذي بدت عليه ملامح كرم، إذاً؛ أي شيء مريع هذا الذي رأوهُ الموتى قبل أن تغادر أرواحهم أجسادهم البالية!

طق .. طق .. طق ..طق!

سمعت هذا الصوت يأتي من خارج غرفة التشريح، كيف لذلك أن يحدث، والغرفة غرفة عزل!

هذه هي المرة الثانية التي يحدث بها هذا، في المرة الأولى تسلل الصوت من هنا، أما في هذه المرة، تسلل الصوت من الخارج!

كان الصوت يعبر عن واقع اصطدام حذاء بالأرض، صوت أقدام رجل يمشي بالخارج! في بادئ الأمر، حسبته الدكتور محمد زميلي، فنظرت صوب النافذة الزجاجية التي تكشف غرفتي الخاصة، وصرخت!

حاولتِ الهروب لكنني تيبستُ مكاني، شُلت حركتي، كما لو أن تكأكأَ حولي رجال العالم جميعهم، وتمكنوا مني! فقدت قدرتي على النطق بعد الصرخة، انعقد لساني، والتصقت شفتاي، كما لو وضعت بينهم مادة صَمغية، حبست أنفاسي، وشعرت أن هناك أحد يطبق كفيه حول عنقي! ارتجف جسدي، وتجمدت الدماء داخل عروقي، أحسست بالسقيع، كما لو كنت أقف عارياً بالقطب الشمالِي، خفق قلبي سريعاً من الخوف، إذ أنني رأيت حينها ظلاً يقف داخل غرفتي؛ له عينين سوداويتينِ لامعتين، اسودت النافذة، ثم في لمح البصر وجدته يقفَ أمامي مباشرة، مسخ، لعين، بشع، أحكم قبضتيهِ على عنقي، دون أن تتحرك يداه!

شعرت وكأنَ شخصًا ما أحكم قبضتيهُ حول عنقي، شعرت

أن الأنوار تنطفئ، الرؤية تقل، حُجب الهواء عن رئتيّ، سعلتُ بشدة، ثم .... تهاوى جسدي أرضاً!

******

إسراء

أخذني عمر إلى بيتي، ثم ذهب كما اتفق معي، إلى والدة سيف، وبمجرد أن دلفتُ داخل الشقة، طُرق الباب، استدرتُ ونظرت من عين الباب السحرية، وتفاجأت؛ إذ أن الطارق هو السيد صالح وكيل النيابة!

ترى لمَ أتى إلى منزلي؟، لم أتردد كثيراً حتى أعرف الإجابة عن هذا السؤال، فتحت الباب، وأنا أرحب مبتسمة بالزائرِ ودعوته للدخول، دخل السيد صالح وهو يمسح كل أرجاءَ الردهة بعينيه، كأنَ عينيه زُرع بداخِلهُما كاميرا، أعرف ماهية الوظيفة التي يمتهنُها السيد صالِح جيداً، لذا لا أتعجب من نظراته، أشرت له أن يتفضل بالجلوس، وسألته عما يفضل من المشروبات، فأجاب:

_ قهوة، دون سكر إذا سمحتِ.

دنوتُ إلى المطبخ وغبتُ لبضع دقائق، ثم عدت ثانيةً إليه، أحمل قدح قهوته، ولا زال هو يُمعن النظر صوب كل أركان الردهة، وضعت القهوة والمياه أمامه فوق الطاولة، وقبل أن أسأله، باغتنيّ قائلاً:

_لن أجعل الحيرة تسيطر عليكِ كثيراً.

ثم أخرجٍ من جيبه هاتفاً، نقر أعلى شاشته، وقام بتشغيل تسجيلاً لمكالمة صوتية، بيني وبين كرم، كنت أستمع إلى التسجيل الصوتي وأنا مندهشة، إذ إنني لا أتذكر أي شيء مما قيل فيه! وعندما انتهى التسجيل، كل ما تذكرته، هو ما أخبرني به كرم عند نهاية حديثه قائلاً:

_اذهبي إلى عمر، وكوني بجانبه.

وهذه كانت إجابتي على سؤال السيد صالح الذي وجهه إليّ بعد انتهاء التسجيل؛ أنني لا أتذكر أي شيء مما قيل، سوى كلمات النهاية فقط، كل ما سيطر عليّ وقت المكالمة، أنني حسبت نفسي أحلم، فأغلقت المكالمة مع كرم دون وعي، وذهبت كما يذهب الموتى، سبات تام لا شعور بداخله، وفي الصباح عندما استيقظت، أمسكت هاتفي، فوجدت مكالمة استقبلتها من كرم، فتذكرتُ أنه قد أخبرني أن أذهب إلى عمر، وبناءً عليه فعلت.

أشعل السيد صالح سيجارة، ثم نفثَ الدخان وهو يسعل، وقال:

_يراود عقلي أن ثمة شئ غير طبيعي يتحكم في مجرى الأمور، كل الأحداث باتت من العجائب، بل فاقت هذا الوصف، إسراء، أنا هنا بصفة ودية، جئت للمساعدة وأن أجد إجابات لكل ما يدور حولنا، أرجوكِ، ساعديني، بوحي لي بكل ما تعرفينه.

لم تكن أمي في المنزل ذلك الوقت، حيث أنها ذهبت لزيارة خالتي، ولهذا شكرت الله أنه وفق السيد صالح في اختيار

موعد هذه الزيارة، لأنني أحبذ ألا تعرف أمي أي شيء عما يحدث، حتى لا تخاف عليّ.

ساد الصمت بيننا نحو دقيقة من الوقت، ثم شهقت وزفرتُ وقلت:

_ سوف أحكي لك يا سيدي ما مررت به، بداية من اليوم الذي مات به سيف، حتى اللحظة التي تجمعنا.

ثم قصصت عليه كل شيء، كان يستغرب تارة بعض الحديث، ويصدق على كلامي تارة أخرى، وبعد أن انتهيت، قال:

_لقد أكد كلامكِ ما مررت به، لقد رأيت ما يدعو للخوف والحيرة والجنون، كما أن صديقي كريمٍ الذي يعمل كطبيب شرعي، حدثت له أشياء مخيفة وجنونيةً كذلك، عندما كان يقوم بتشريح الجثتين، سيف والسيدة صفاء، وقصَ عليّ ما مر به، لذلك أصدقك، وكم أشفقُ على عمر، أعتقد لو كان شخصاً آخر، لأصابهُ الجنون، ربما كان مات حسرة بعد أن فقد معظم أحبته، إذاً؛عليّ أن أذهب إلى عمر الآن، لا بد أن أتحدث معه.

قلت له:

_لكنَ عمر ذهب لزيارة والدة سيف، لا تذهب الآن إليه مباشرة، انتظر ساعتين حتى يعود إلى المنزل، ثم اذهب إليه، سيد صالح؛ أرجوك، حاول أن تساعده، عمر إنسانٍ طيب القلب، وبما أنك رأيت ذلك الظل وصديقك أيضاً، فأنت الآن تعلم جيداً، أن ليس لعمر أي يد فيما يحدث،

بينما هنالك قوة غير طبيعية تساير الأحداث.

أومأ رأسه بالموافقة، ثم ابتسم ليَّ ابتسامة مريحة، كأخٍ يريد المساعدة حقاً، وشكرني على القهوة، ثم انصرف.

******

عمر

وصلت إلى البناية التي تسكن بها السيدة وفاء والدة سيف، ثم اتصلت بها وأخبرتُها أنني جئت لزيارتها، وأنني أقف تحت البناية أنتظر أن تفتح لي بوابة البناية الحديدية، فرحبت بي وفتحت الباب.

صعدت إلى شقتها، وبعد أن طرقت الباب، استقبلتني بالعناقِ الشديد، بكت بكاءً شديدًا، وقبلت رأسي وكتفيّ وهي تقول باكية:

_أرى فيك سيف، أشم رائحة سيف تفوح منك، تفضل يا عمر.

بعد أن دخلت، وقع نظري على غرفة سيف، انهمر الدمع من عينيّ رغماً عني، بكيت كما يبكين الثكالى والأرامل، تمزق قلبي وكمدَ، مرت أمامي كل الذكريات الجميلة التي جمعتني بسيف، وتمنيتُ لو كان موجوداً معي، شعرت أنني خرجت عن السياق، كوني تمنيت هذا، استغفرت الله لي وله، ودعوت له أن يتغمده الله برحمته، قرأت الفاتحة داخل غرفته، وخرجت أمسح دمعي، حتى جلَست على أحد كراسي غرفة الاستقبال، ربتت السيدة وفاء على كتفي وقالت بنبرة

منكسرة:

_أريد أن أعتذر لك، علمت بوفاة والدتك، لكنني لم أستطع زيارتك وتقديم واجب العزاء لك، لقد انزلق قدمي داخل المطبخ، وكُسرت رجلي اليمنى، من موضع القدم إلى الساق، وأنت تعلم أن للسن أحكام، فأخذ الكسر مدة مضاعفة حتى تلتئم العظام، وبالأمسِ فقط، أزال الطبيب لي ضمادة الجبس على رجلي.

قلت:

_ لاحظت بالفعل عندما دلفتُ إلى الشقة، أن ثمة شيء تغير في مشيتك، تُحملين على قدمٍ أكثر من الأخرى، لا عليكِ يا أمي، لَا عليكِ، حمداً للّهً على سلامتك، بل أنا من عليه تقديم الاعتذَار لأنني قصرتُ كثيراً خلَال الفترة الماضية، وانقطعت عن السؤال عنكِ، لكنها الظروف اللعينة وموت أمي..

مشيت إلى المطبخ وهي تقول:

_أمضيت فترة طويلة لم تذق فيها القهوة من يدي، أعتقد أنك اشتقت لذلك.

غابت عن نظري داخل المطبخ، واحتل الشك عقلي وقلبي، شعرت أنها تصطنعُ تلك الطريقة الجديدة عند المشي، شعرت أنها تخفي شيئاً، لذا تقوم بخداعي، وتُوهمني، ترى ماذا تخفي وراءها!

وفجأةً؛ سمعت صوت سيف يأتي من غرفته! ارتجف جسدي

وارتعدَ، لم يكن ذلك الصوت بالصوت الذي يسمع عن طريق الأذن، بل كان صوته يأتي من أعماقي، كأنه ينادي عليّ من داخل نفسي! إحساس لا يوصف، ولا تستطيع الكلمات أن تشرحه، شعرت أن صوتي الداخلي الذي أتحدث به إلى نفسي، تحول إلى صوت سيف، أو بالأحرى امتزج به!

نهضت من مجلسي، ودنوتُ من غرفة سيف، وعندما وصلت إلى مدخل الغرفة، هنا شُل جسدي عن الحركة، وقفت مشدوهاً، احتل الوُجوم ملامحي، إذ أنني رأيت سيف! نعم رأيته؛ كان يجلس على سريره، وينظر صوب خزانته، نظراته كانت تنم عن خوف شديد، كادت عينيه أن تغادر المحجرينِ، لم ينظر إليّ مُطلقاً، ثم نهض بغتة، وخطا صوب الخزانةَ، فتح بابها ودخلها واختفى! هرولتُ إلى الخزانة، وأخذت أبحث بجنون، أين ذهب؟ أخرجتُ كل الملابس، وتحسست كل ركن بداخلها، ثم ضربت بيدي خشبها من الداخل، أين ذهب؟ هل جُننت؟ هل ما رأيته حقيقة!

_لماذا تقف هنا؟

_جاء السؤال من خلفي، التفت فوجدت والدة سيف تقف والشر والغضب يسكُنا عينيها وملامحها، أعادت السؤال عليّ مرة أخرى وهي تصرخ غاضبة في وجهي:

_لماذا تقف هنا؟

ثم أردفتْ تسألني:

_ماذا وجدت؟ وماذا رأيت؟

كان صوتها غليظًا، كأن صوتها اختلط بصوت رجل! تلعثم لساني، ولم أعرف ما عليّ قوله، حاولت أن امتلك زمام نفسي، فقلت:

_ لا شيء، أنا آسف أنني دخلت إلى هنا وفتحت الخزانة، شعرت بالحنين المفرط تجاه سيف، فدخلت إلى غرفته مرة أخرى، لربما وجدت ذكرى أحتفظ بها، فأنا لا أملك من ذكراه شيئاً، كانت معي نظارة القراءة الخاصة به، لكنها تحطمت للأسف، أعتذر، كان لا بد أن استأذن أولاً.

تبدلت ملامحها واحَتلها الغضب، حتى بدت كما لو أنها ملامح شيطان! خفت بالفعل، لم أتذكر أن الخوف احتل قلبي مثل هذه المرة، لذلك طلبت منها أن أعود أدراجي، لأنني مرتبط ببعض المواعيد الهامة، وهرولتُ صوب باب الشقة وفتحته، لم أستطع النظر خلفي، أطلقت ساقي للريح، وهربت كما اللصوص، هبطت إلى الشارع، وقدت سيارتي بأقصى سرعة حتى عدت إلى حي عابدين، حينها وقفت بالسيارة، هبطت منها وساقيّ تصطكانِ من الخوف، فوقفتُ بجانب السيارة لبضع ثوانٍ أشهقُ محاولاً أن أستعيد أنفاسي، كان المشهد أمامي وسيفٌ يقودني إلى الخزانة، نعم؛ كان ذلك حقيقة، ولكن؛ لماذا يرشدني سيف إلى الخزانة!

******

وفاء

قاتم، حالك، مظلم، سديد، مريد، مديد...

_أطلبك أن تحضر، أسألك بأسماء أسياد أهل جوف الأرض، وخُدام السطح والبِاطن، باسم المارق، والبَارق والرعديد، إن العهد قد أُخذ، وإني هنا أحد الملبيين لأمرك، فأطلبكُ أن تحضر أيها الملك المتوج المُتقمص.

_ لبيت.

_أسالك، ماذا رأى؟

_ لا نعرف كل ما يدور رغم ما وصلنا من المعرفة.

_ كاد أن يُكشف السر، ماذا عليّ أن أفعل؟ أرجو مساعدتك.

_ على أية حال، كان لا بد للسرِ أن يكشف، عليكِ البوح بما سنمليه عليكِ عندما يعود ثانيةً، لا بد أن يخضعَ وينضم هذا الإنسان إلينَا، لا بد أن ينال عهدنا، وأن يختلط دمه بدمائنا، من انتكس بعد هدى، نحن أولى به من الهدى، لا بد أن نسبق، وألا تعود نفسه بالكامل إليه!

******

الفصل السابع

« ملاحقة الشيطان »

صالح

قدت سيارتي صوب بيت والدة زوجتي، كم كنت أشتاق إلى رؤيتها ورؤية أبنائي، فمهما احتدَ بيننا الخلاف، فستبقَى هي السند الذي ألجأ إليه دوماً عندما يتخلى عقلي عني، وتقل حيلتي، كانت وستكون هي دليلي ومُرشدي الأبدي، وصلت، وطرقت الباب ففتحت لي زوجتي، رحبت بي وابتسمت ابتسامة صافية، تعكس النقاء الذي يقطن قلبها، والحب الذي لا يتبدل أبداً، فهي تستطيع أن تقرأ كل ما بداخلي من مجرد نظرة عين، لقد فهمت بفِطنَتِهَا أنني أعاني من شيء ما، ولا أجد العون لتفسيره، فنسيت الخلاف، ودعتني للدخول، وما إن جلستُ، حتى قالت بصوت يملؤه الشجن:

_أخبرني ولا تتردد أبداً، يبدو عليك القلق، وجهك شاحب وهزيل.

أجبت ويدي تحتضن كفيها:

_ لا شيء، تعلمين أن حياة الرجال دون أنثى ليس لها معنى، ولا يوجد بها أي اهتمام، تعلمين أيضاً طبيعة عملي، أنسى نفسي كثيراً، والأكل كذلك، لذلك أبدو على هذه

الحال، لا تقلقي، ستكون الأمور على ما يرام قريباً، جئت أعتذر عما بَدَرَ مني تجاهك، جئت لأُنهي الخلاف بيننا، لقد انطفئ النور داخل البيت بغيابك، ارجعي في الوقت الذي يناسبك، فلم آتي لأجبركِ على العودة، فقط جئت للاعتذار ولأنني أحتاجكِ.

طرقٌ الباب أعلن عن عودة الأولاد من المدرسة وحماتي أيضاً التي كانت تتسوق، وهذا لم يترك لها أية مساحة للرد على كلامي، هلل الأولاد عند رؤيتي، كانت مفاجأة لهم، عانقنا بعضنا البعض بحرارة، وانهالت القبلات على وجهي، كنت اشتاق بالفعل إليهم كثيراً، وبعد نصف ساعة قضيتها معهم، انصرفت بعد أن أخبرتهم أن لدي موعد هام، كنت أنظر حينها إلى زوجتي كأنني أودعها، لا أعرف لمَ احتل هذا الشعور نفسي، وتمنيتُ لو أنها تعود إلى المنزل سريعاً، هبطت إلى الشارع، وقدت سيارتي في طريقي إلى عمر، أو بالأحرى إلى منزل عمر.

أثناء قيادتي، شعرت أن معي داخل السيارة شخص غيري، أسمع شهيقهُ وزفيرهُ، انتصب شعر رأسي وذراعيّ، واقشعر جسدي قشعريرة خفيفة؛ كالإحساس الذي ينتابك عندما تدخل من الشارع إلى أحد المحلات التجارية الضخمة، فيلمس جسدك الساخن هواء مبرد الحرارة! هذا أدق وصف لما انتابني، ثم وقع نظري على المرآة أمامي، التي تعكس الرؤية ورائي، وفجأةً؛ لمحت جثة ملفوفة بالكفنِ، تتمدد على المقعد الخلفي لسيارتي، وكما ظهرت فجأةً، اختفت

فجأة!

أوقفت السيارة، والتفت خلفي باحثاً عن تلك الجثة، فلم أجد شيئًا، لكنني وجدت أن سيارتي أثناء توقفي فجأة، اصطدمت بسيارة أخرى كانت أمامي مباشرة، لم أشعر بذلك، كنت مغيباً!

خرجت من السيارة، فارتفع صوت قائد السيارة التي اصطدمت بها غاضباً، وكذلك ارتفع صوتي، في هذه الأوقات إن أخفضتَ صوتك، ربما تُبرح ضرباً، حتى يظهر لك صاحب كما قالوا في الماضي!

حرصت على أن أعبر هذا الموقف سريعاً، ولذلك ولأول مرة أستخدم كوني رجلًا يمثل النيابة، حينها سكن الخوف أعين الحشد، تلعثم صاحب السيارة، وانفض الناس، فاقتربت منه معتذراً، وأعطيته رقم هاتفي الشخصي وأخبرته أن يتصل بي غداً وسوف أقوم بإصلاح أي شيء قمت بإتلافهُ، ثم عدت إلى داخل سيارتي مرة أخرى، نظرت إلى المقعد الخلفي، ووجدت ما جعلني أفقد عقلي، وأكد لي أنني لا أحلم، إذ أنني وجدت قطعة من كفن أبيض اللون، كتب عليه اسمي بلون أحمر، لمسته وكان ملمسهُ كما السائل الذي وجدته في شقتي! حينها ارتجف جسدي مرة أخرى، نعم، كما ارتجف جسدك الآن تماماً!

أعدت قطعة قماش الكفن، المكتوب عليها اسمي إلى موضعها ثانيةً، كان لا بد أن أصل لعمر بسرعة، لذا قدت سيارتي وانطلقت إلى حي عابدين، وبعد حوالي نصف ساعة

أو نحو ذلك، وصلت إلى منزل عمر، وما إن دنوتُ الطابق التي تقع فيه شقته، فوجدت الباب غير مغلق بالكامل، وسمعت أصواتًا تهلل بِصيحات؛ أحدها ناعم يشبه أصوات النساء، لم أفسر جيداً ما نتج من تبادل صيحات الغضب، لكنني رأيت الباب يفتح على مصراعيه عنوة، ثم خرج من داخل الشقة أغرب شخص رأته عينيّ بحياتي؛ حسبته أنثى عند النظرة الأولى، وما إن أمعنتُ النظر به، حتى وجدته لا يملك مقومات الأنوثة الجسدية التي يعرفها الرجال جيداً، لذا تلاشى اعتقادي بالأنثى، وحل مكانها فكرة أنه أنثى متحولة، أو ربما يكون....، لن أخوض في الأمر أكثر من ذلك، هنالك ما هو أهم بكثير، تناسيت أمر هذا الكائن الذي لم ألقَ له وصفًا دقيقًا، وقفت حذو الباب المفتوح، طرقت عليه وأنا أنظر إلى داخل الشقة، فوجدت عمر يجلس على أريكة الردهة، مُطرق الرأس، رفع رأسه بصعوبة، كما لو أنٍ رأسه يزن حجم حوت أزرق بالغ، نظر إليّ ولم يندهش كثيراً، نهض من مجلسه ببطء، واتكأ على مخدع الأريكة بجذع مائل، ثم ارتسمت على تقاسيم وجهه ابتسامة سخرية، أحسسًت أنها تميل نحو الظروف أكثر من أنها تؤول إليّ، حتى قال:

ــإذن؛ دعني أقدم لك قدحاً جديداً من القهوة منزوعة السكر، لا تتعجب؛ لقد أعلمتني إسراء، أرسلت لي عبر (الواتساب) أنك قمت بزيارتها، وأنك سوف تأتي لزيارتي، قرأت رسالتها أثناء عودتي إلى هنا، لذا؛ اسمح لي أن أصنع لنفسي قدحاً مماثلاً لقدحك، وأنالُ شرف شُرب القهوة

معك، أعتقد أن هذا المجلس سيطول وقته، اجلس يا سيدي واستَرِح، واستعد للكثير من الثرثرة، التي ستفقدكَ عقلك حتماً.

جلست أستكشف أروقة البيت بعينيّ، ريح البيت تبعث بداخلي عدم الراحة، شعرت أنني أختنق، والضيق ملأ قلبي، جاء عمر ووضع القدحانِ فوق الطاولة، ثم جلس أمامي مباشرة وقال:

_أريدك أن تصنع لي معروفاً، اسمح لي أن أُلقي نظرة وداع أخيرة على جسد كرم قبل أن يغطيه التراب.

قلت:

_ لك ما طلبت، لكنني أيضاً جئت إليك لتصنع لي معروفاً، فأخبرني حقيقة الأمور ولا تخفي عني شيئاً.

نهض عمر من مجلسه، وأشار لي أن أتبعهُ، مشى نحو غرفة بابها غير المغلق بالكامل، وبعد أن دخلناها، سألني:

_ هل تشعر بثمةِ شيء غير مريح؟

_ نعم، أشعر بهذا منذ أن دلفتُ إلى الشقة، وازداد الضيق بقلبي أكثر الآن.

استرسل عمر في حديثه قائلاً:

_هنا يسكن شبحاً؛ نعم يا سيدي، يقطن غرفتي أحد الشياطين، بل قدراته تفوق قدرات الشياطين، إنه عفريت، ينثر شره داخل البيت، تستشعر هذا منذ اللحظة الأولى لك

هنا.

لم يقف عمر عند هذا الحد، بل إنه قضى نحو الساعتين يقُص عليّ كل الأحداث والمواقف والأشياء الغير طبيعية التي طرأت عليه، بدايةً من فقده لصديقه سيف، حتى الموقف الذي جمعه بالسيدة وفاء، لم أتدخل، تركته يُخرج ما في جعبته، وعندما أنهى كلامه، قصصت له ما شعرت به، وما أخبرني به كريم، وشكوكي، وحدسي، إحساس بالأُلفة تملكني تجاه عمر، كأنه صديقي المقرب منذ الطفولة، وجدت فيه شخصًا طيبًا، دمره الحزن، ولعب به الشيطان، فأردفتُ قائلاً:

_ نحن الآن حددنا ماهية ما نواجه، حتى وإن كان شبحاً، إلا أننا ندرك أنه شبحاً، عليك أن تعود إلى تلك السيدة، دقات نبضي الداخلي وحدسي، يحدثانيّ أن تلك السيدة تخبئ وراءها لُب الموضوع، ولا تقلق؛ سأكون بجانبك دائماً ولن أتركك أبداً.

تنهد عمر قليلاً، وقال بنبرة خوف:

_لا أريد أن أخسر إسراء، أو أن تموت أنت، إذا أكملت ذلك الطريق، سأفقدكما، لا أريد خسائر أخرى، أفضل أن أموت أنا، ولا أرى مكروهاً آخر يصيب أي إنسان بسببي، فكل الذين حاولوا مساعدتي، ماتوا، دون حتى أن يتيحِ لي القدر لحظة وداع أخيرة، هذا الشيطان يريدني، أنا دوناً عن أي شخص آخر، وأعتقد أنك أصبت القول؛ عليّ مواجهته، لكن وحدي، دون مساعدة أحد.

قاطعته بغضب:

_ لاٍ يا عمر، إن تلك المعركة لا تخصك وحدك، بل أنا أيضاً جزء منها، و...

رن هاتفي وقطع حديثي إلى عمر، إذ أنني وجدت رقم المشرحة الخاص يظهر على شاشة هاتفي، خفق قلبي وانقبض، أجبت على المكالمة بتردد، فسمعت:

_لقد مات كريم يا صالح، كان من المفترض أن أساعدهُ في تشريح الجثة، لكنني ٍتأخرت عليه، وعندما دخلت غرفة التشريح وجدته ساقطًا على الأرض، عيناه مفتوحتان بالكامل، تكادانِ أن تفارقا وجهه من الذعر والهلع، تلون وجهه بالأزرق، لَا أعرف ماذا رأى قبل موته حتى تظهر عليه تلك العلامات، لم أبلغ أحدًا بعد، أنا أنتظرك.

فاض الدمع من عينيّ، وانزلق الهاتف من كفي، ثبتت نظري صوب عمر الذى بدا عليه القلق، واحتل تقاسيم وجهه الوُجوم والاستفهام، فقلت والحزنُ يمزق قلبي:

_ إنها معركتيّ الآن أكثر منك، أُخبرت أن أعز أصدقائي توفى الآن، توفى كما توفى سيف وكرم، وأمك كذلك، جميعهم اجتمع على وجوهم الخوف والذعر ٍوالرعب، اذهب يا عمر إلى تلك السيدة، ولن أتخلى عنك أبداً، وأنا لا بد أن أذهب إلى المشرحة الآن، إن من توفى هو صديقي كريم، الطبيب الشرعي.

******

السيدة وفاء

طُرق الباب، فحسبته هو، قمت مسرعة لفتح الباب، لكنني أخطأتُ التخمين، نظرت له من جبهته إلى أخمص قدميه بنظرة دُونيّة، وقلت:

_ ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟ ألم أقل لك مسبقاً ألا تأتِي أبداً، مهما حدث، إلا عندما أطلب منك ذلك!

تلعثم ونظر إلى الأرض في خجل، ثم قال بنبرة ناعمة، أكثر أنوثة من نَبرتي:

_لقد أهانني، قام بطردي، ونعتني بأكثرِ الألفاظ بشاعة وقبحا، لقد عاد إلى نفسه مجدداً، ألم يكنَ هذا سببًا كافيًا لكي آتي إليكِ؟

قلت:

_ بل سبباً كافياً يدل أنك فاشل، وأنك أضعتَ آخرِ فرصة لك في إثبات عكس ذلك، كالعادة؛ لقد فشلتَ مجدداً، أدخل يا إياد وأغلق الباب وراءك، واجلس وأنصت إلي جيداً.

جلس مُطرق الرأس، فجلست على مقربة منه، واسترسلتُ في حديثي إليه:

_ اسمع يا هذا، مهمتك معي قد انتهت الآن، عُد مجدداً إلى حيث تنتمي، داخل قيعانِ اللهو والترف، ومُصاحبة الكأس، برفقة النسوة اللعائب، تسببت لي سابقاً بالكثير من المتاعب، كدت أن تكشف سري إلى الشرطة مرارا،

إياد؛ أنا هنا أكررها عليك مرة أخرى، بل ألف مرة إن أحببت ذلك، أنت فاشل، ولكنني أُذكركَ قبلٍ أن ترحل، إن وسوس لك شيطانك البائس، وهَيأَ لك طريقاً للبوح بما عرفته هنا، أنت تعلم جيداً، أي مصير ينتظرك بعدها، والآن، انهض، واغرب عن وجهي.

وثب من مجلسه مرتعشاً، وهرول صوب باب الشقة، وخرج منه بسرعة وهو يجُر خلفه أذيال الخيبة والفشل، لا أعرف كيف وثقت في هذا المعتوه، لكن على أية حال، لقد صنع هذه المرة، شيئاً بالكاد يُذكر، و...

قطع حديثي إلى نفسي صوت طرقُ الباب مجدداً، سكن الغضب قلبٍي وملامحي، فتحت وأنا أستعد لقتله إن كان قد عاد مجددا، وعندما فتحت، خاب ظني مرة أخرى؛ إذ أنني وجدت عمر هو من كان يطرُق الباب، شعرت بانتصار، لقد جاءِ إلي عمر بعد طول انتظار، أرى في عينيه انهزامًا أحبذهُ كثيراً، بدا مسلوب الإرادة، فاقد للشغف، وهن عزمه، وأصبح لا يبالي إلى أي مصير سيأخذهُ القدر، فقلت:

_ تفضل يا عمر.

جلس أمامي، ومسح على جبهته بتوتر كأنه يستجمعَ كلماته قبل النطق بها، ثم تنهد وقال:

_أنا اعتذر عن مقابلة الصباح، فأنا تائه، ضللت كل الطرق لاستعادة نفسي، ولا أعرف حتى لماذا رحلت بهذه السرعة، ولماذا امتلكني ذاك الخوف، وها أنا جئت إليك مجدداً،

أريد إجابات على أسئلة كثيرة تدور داخل عقلي.

_ إذاً! أخبرني بما رأيته تفصيلاً، وبعدها سوف أجيب كل أسئلتك.

قال:

_ لقد رأيت سيف على حين غرة، كان يرشدني إلى شيء ما، لكنني لم أستطع معرفة ما يريده مني تحديداً، ولا أعرف أيضاً، هل ما رأيته، خُيل لي أم كان حقيقيًا!

أعجبني قول عمر، شعرت أنه ما زال مغيباً، واستبعدت كونه يلعب معي، فما قاله له وقعٌ ينم على أنه لا يفرق، إذا كان سيف يرشده إلى كشف الحقيقة، أم يرشده إلى ضلاله، لو أنه يعلم حقيقة ما حدث لسيف، لوشىَ للشرطة عني، قلت:

_ أنصت لي جيداً، ولا تعصي لي أمراً، ولا ترد لي طلباً، إذا اتبعت أنقذت حياتك، وحياة من تبقى حولك، وإذا تمردت، ستلقى نفس مصائُرهم، فحكم عقلك تنل النجاة، لك ولكل من تريد له ذلك.

أومأ بالموافقة، وكان ثابتاً، لم يبدُ عليه أية ردة فعل، وهذا ما جعلني أشعر أن (مَاروخ)، يحكم سيطرته عليه، تابعت أقول:

_ دعنا في بادئ الأمر نتعاهد، فالعهدَ الذي سنجريهِ، سيكون عهداً لا يمكن نقضه.

أومأ ثانية بالموافقة، فطلبت منه أن يتبعني إلى غرفة سيف، خطا ورائي بخطى بطيئة تنم عن القلق، حتى دخلنا الغرفة، وحينها تيبسَ في موضعه، وارتجف جسده، وقُطع التيار الكهربائي!

******

صالح

لا أعرف كيف قدت سيارتي في الطريق من منزل عمر في حي عابدين، إلى المشرحة التي تقع عند مساكن (زينهم)، وهي إحدى المناطق التي تنتمي إلى حي (السيدة زينب)، ربما المسافة ليست بالبعيدة، وإنما شعرت وكأنني سافرت من القاهرة إلى أسوان!

وصلت وكان الدكتور (محمد سيد) في انتظاري، أدخلني إلى غرفة كريم الخاصة، ثم دلفنَا إلى غرفة عزل صغيرة داخل غرفة كريم، حينها لم أستطع إمساك دموعي أو منعها، بكيت وانتحبتُ؛ كما النساء اللاتي فقدن أبنائهن، كالأطفالِ في المهد، كامرأة فقدت رحمها، إذ وجدت جثمان كريم يفترش سرير التشريح!

دنوتُ منه، واحتضنتهُ وأنا لا أستطيعِ التوقف عن البكاء، لم أصدق عينيّ بأن كريم قد مات فعلاً، اقترب مني محمد وهو بالكاد يستطيع كبح جماح دموعه أن تفيض، ثم أمسك بكتفي وهو يقول:

_انهض يا صالح، انهض، لا عائد مما تفعل، ادعُ له أن

يتغمدهُ اللّه برحمتهِ، وأهدأ حتى نستطيع إيجاد تفسير منطقي لموته.

نهضت وساقيّ لا تستطيعان حمل وزني، خارت قواي، وماتت أعصابي، كأنني طفل يحاول الوقوف لأول مرة، اتكأتُ على ساعد الدكتور محمد، فمد يده الأخرى، وجلب كرسيًّا كان على مقربة منا، جلست وأنا لازلت لا أصدق نفسي، غاب عني لثواني ثم عاد ومعه مياه لأشرب، وجلب كرسيًّا آخر وجلس إلى جواري، وقال:

_طلبني كريم وأخبرني أن هنالك حالة جديدة، سيقومٍ بالعمل عليها ويريد مني أن أعاونه، لكنني كنت مرتبطا بموعد لذلك تأخرت عن اللحاق به، وعندما جئت إلى هنا، ودخلت إلى هذه الغرفة، وجدت جسد كريم مُمدد علىٍ الأرض، يسكن عينيه وملامحه الذعر، كأنه رأى شيطاناً، وجهه شاحب، يتلون بالأزرقِ، ربما إثر تعرضه لاختناق، أزمة تنفسية حادة، توقف علَى إثرها القلب عن أداء مهام وظيفته و...

قاطعته بحزم:

_ لن تُشرح جثة كريم أبداً، سنقول أن اللّه استعاد عطيته، مات كريم فجأة، كأي شخص عمره انتهى، وسنقومٍ بتغسيله أنا وأنت، ثمٍ نُعلم أسرته، هذا سيبقى سراً بيننا، دعني أسألك سؤالا؛ هل أخبرك كريم من قبل إن كان يشعر بأشياءٍ يؤول مصدرها إلى الجن والشياطين؟

صمت للحظة يفكر في سؤالي، وقال:

_صراحةً؛ نعم، منذ ما يقارب شهرين، طلب مني أن أعاونهُ بتشريح جثة سيدة، بدا على ملامحها آثار غريبة من خوف ورعب، كنت آنذاك في منزلي، وبعد أن ارتديت ثيابي ونزلت وكنت في طريقي إليه، اتصل بي وأخبرني أنه أتم العمل، اعتذر لي، وطلب مني أن أعود إلى منزلي مرة أخرىٍ، وبعد حوالي ساعتين أو أكثر، عاودٍ الاتصال بي مجدداً، كانت أنفاسه مُتهدجة، تلعثم كثيراً، ولٍم يكن باستطاعته ترتيب كلماته، أخبرني أن هناك شبحاً يراوده، وأن هنالك جثة أخرى لشاب، قد قام بتشريحها مسبقاً، بدا عليها نفس العلامات، خوف وذعر ورعب، وأنه يظن أن الموت سببه الجن والشياطين، وللحق؛ لم أصدقه يومها، لكنني هدأت من روعه، وانتهى الموقف يومها، وبعد حوالي أسبوع، اتصل بي في ساعة متأخرة من الليل، ووجدته تنتابهُ حالة من الذعر، لا تقل عن سابقتها، وحدثني أنه يستشعر أن هنالك شيء ما يراقبه، شيء منٍ عالم آخر، فهنالك أمور عدة تحدث، لا يلقى لها تفسيراً، ثم عاد في نفس المكالمة وبعد أن هدأ، وطلب مني أن أنسى كل ما قاله، وأنه فقط يُهذي لا أكثر، ومنذ ذلك اليوم، لم يتحدث معي عن ذلك الموضوع مرة أخرى، لذا؛ اقتنعت أنها حالة هذيان من واقع عمل شاق على الأرجح، إذ أن طبيعة عملنا في واقعها مُرعب، أي أننا نتعامل مع موتى، وننفردَ بهم، والحكايات لا تنتهي عن أشباح موتى الحوادث والجرائم، لذا حسبت ذلك منطقيًا، لكن الآن تبدلت الأفكار داخل عقلي؛ إذ أنني أرى وإياك، أن

ملامح كريم يبدو عليها نفس العلامات التي تحدث عنها من قبل، وربما أنت تعلم عن الأمر ما لم أعلم، لذلك أشاطركُ الرأي، لا بد أن ننهي الغُسل وننقل جثمان كريم إلى مثواه الأخير، ومن ثم نعمل جيداً حول السبب وراء موته.

كنت أنصت لحديث الدكتور محمد جيداً، وفي نفس الوقت، تمُرُ أمام عينيَّ، كل الأحداث الغير منطقية التي طرأت على حياتي مؤخراً، وتأكد بداخلي أن هناك تدخل شيطاني يبلغ من القوة، ما لا نستطيع استيعابه، وفي هذه الأثناء؛ كان لا بد من الرضا بقضاء اللّه، استجمعت قواي، وتمالكتُ نفسي، وشرعت مع الدكتور محمد في تنفيذ ما اتفقنا عليه معاً؛ أن نُغسل جسد كرم، وبعدها نُعلن وفاته.

******

إسراء

غادر السيد صالح منزلي، بعد أن تركَ بداخلي شعورًا بالطمأنينة، حتى لو كان بسيطاً، إلا إنه قد وُلدَ، على الأقل هناك شخص ذو منصب يصدقنا، ويملك برهاناً على تواجد قوة خفية تعبث بنا، هذا ما سوف يساعدنا في كشف حقيقة الأمر، رن هاتفي أثناء حديثي إلى نفسي، وهو يخبرني أن هناك رسالة وصلت إليّ، أمسكت بهاتفي، فوجدتها رسالة أرسلها لي عمر، عن طريق تطبيق (الواتساب)، قال فيها أنه في طريقه مرة أخرى إلى والدة سيف، إذ أنه قابل السيد صالح وتبادلا أطراف الحديث، وكان الشك يحوم حولها، لذا اتفقا على أن يعود عمر إليها، ويحاول معرفة ما تخفيه

في جعبتها، واصفاً الشعور الذي ينتابه، إذ قال:

_أشعر وكأنها قتلت سيف، لقد أراد أن يخبرني بالمكان الذي مات فيه، أو ربما سبب موته، لكنني للأسف، لم أفهم ما أشار إليه، ولطالما أراد اللّٰه لي أن أحيا؛ سأحاول كشف الحقيقة، ومعرفة إجابة سؤال (كيف مات سيف؟)؛ السؤال الذي أرق حياتي، وأخذ معه حياة كل من أحببت.

بعد أن انتهيت من قراءة رسالة عمر، سيطر على قلبي القلق، وبدأت معدتي تؤلمني، هذا الشعور الذي نشعر به جميعنا دون استثناء عند الخوف، وزاد على الخوف خوفًا؛ إذ أنني سمعت على حين غرة، صوت آثار أقدام يأتي من غرفتي! كان ذلك الصوت يدل على أن أحدًا ما يخطو بخطوات بطيئة داخل غرفتي، كأنه يزرع الغرفة ذهاباً وإياباً! أنصتتُّ جيداً علنيّ خُيل لي، لكن استمر الصوت دون انقطاع! تيبس جسدي، كما لو أنني تمثال، كل الفرق بيني وبين التمثال؛ أنني أسمع وعيناي تؤديان عملهما بالرؤية، لم أستطع من الخوف أن أتحرك ولو خطوة واحدة صوب الغرفة لأرىَ ما يدور بداخلها، حتى أنني من شدة الخوف، لم أستطع أن أقوم بفتح باب الشقة وأهرب، كما وصفت؛ تمثال من لحم ودم!

وفجأة؛ شعرت بضيق رهيب يخنقني، تهدجتَ أنفاسي، جف حلقي، وفجأة؛ خرج من غرفتي ظل، ظل كالذي رأيته من قبل يخرج من غرفة عمر! كانت له هيئة عمر، يزيد عنه أنه نحيل الجسد، له عينان سوداويتانِ لامعتانِ، أما بقية

ملامحه كملامح عمر، لكنه ظل؛ كما لو أنك ترى ظلك ينعكس على الجِدار، ترى ملامحك لكنك لا تُفسرها!

ارتعدتْ فرائصي، وسكن الوُجوم تقاسيم وجهي، واتسعت عيناي مما رأيته أمامي، وفجأة؛ بدأ ذلك الشيء يخطو صوبي، خطواته تشبه السَكارَى، مد ذراعيه الطويلتين بالكامل صوب عنقي، فلم أستطع الحراك، أو حتى الصراخ، ثم أحكم قبضتيهِ على عنقي، وبدأ بالدهسِ عليه، كنت أختنقٍ، شعرت أنَني أموت، ولا أستطيع إبداَء أي ردة فعلٍ نهائياً، بدأت الرؤية تقل، والهواء الداخل إلى رئتي أيضاً، سلمت أمري للّه، ونطقتُ الشهادة داخل نفسي، وفجأة؛ فُتح باب الشقة، وسمعت صرخة مدوية، كل ما أتذكره قبل أن أسقط على الأرض فاقدة للوعي؛ أن الصرخة خرجت من قلب أمي وليس حنجرتها!

بعد ساعة أو نحو ذلك، استرددت وعيي مرة أخرى، تحسست عنقي بكفيّ، وكنت أبتلع ريقي بصعوبة، أتنفس كالغريقِ الذي بصق المياه من فمه بعد أن استرد وعيه، صدري يصعد ويهبط من الخوف، فوجدت أمي جانبي، كانت تجلس أمامي على كرسي بلاستيكي، وقد غلب النعاس جسدها المتعب، لمست كفها، فانتفضت من الفزع، احتضنتني وربتتْ على ظهري بحنو، فهدأ روعي واطمئنُ قلبي، لا راحة في هذا العالم، تضاهي الراحة التي يلقاها المرء منا داخل ذراعي أمه.

سألتها بتلعثمٍ:

_ماذا حدث لي يا أمي؟

قالت:

_غادرت منزل خالتك، حتى أصل قبلكِ، حسبت أنك لم ترجعي بعد، إذ أنكِ لم تتصلي بي، لذا ابتَعتُ بعض متطلَبات البيت، وعدت إلىَ هنا، وعندما فتحت الباب ودلفتُ إلى الداخل، وجدتك تحاولين خنق نفسك! لقد أرسلني اللّه لكِ عند آخر لحظة، إذ وجدت وجهك تلون بالأزرقِ، وبالكادَ تشهقين، رأيتكِ تلفظين أنفاسك الأخيرة، صرخت من أعماق قلبي خوَفاً، ودفعتك دون وعي حتى لا تفعلي ذلك في نفسك، فسقطتي فاقدة الوعي، استعنت بوالدة سامية ووالدة ريهام جيراننا، وحملناكِ إلى غرفتكِ هنا، والحمد للّه حمداً كثيراً أنه أرسلني إليكَ في الوقت المَناسب، وإلا... لا أريد أن أنطقها، الحمد للّهَ أنكِ بخير، ولكنِ، ما الذي يدفعكِ لذلك؟ هل تريدين لقلبي أنَ يحترق حزناً عليكِ؟ ألم يطرأَ ولو للحظة واحدة داخل عقلك، ما سوف يعود علَيّ إن حدث لكِ مكروها؟ إن كنتِ تخفين عني شيئًا ما، أو هنالك ما يحزنكِ، بوحي لي به، فأنا أمك، سركِ وصمام الأمان لك.

اقتربت منها أكثر بعد ما أنهت حديثها إليّ، وقبلت كفيها ورأسها، واعتذرت لها عما بَدَرَ مني، وفي لحظة خوف وتخبط، اتخذت قراري، إذ أنني قررت أن أقصُ عليها ما يراودني، حتى ألقى دعمها، وآخذ بنصائحها، وأن تشاركني قلقي وقلة حيلتي، وأن تعرف الحقيقة كاملة، وأنني معاذ اللّه

أن أفكر في الانتحار، لم تكن أنا التي فعلت ذلك، بل كان ذاك الشيء الشيطاني العابث بنا!

******

الفصل الثامن

«المُتقَمِص»

عمر

كنت أحاول ألا تلاحظ السيدة وفاء، أي تغيير عليّ، ركزت جيداً في مهمتي التي جئت من أجلها، فلا خيار ثالث، إما الموت أو الحياة، كنت أُصارع التوتر والقلق والخوف بداخلي، شعرت أن كلانا يحاول خداع الآخر، لذا قررت أن أكون سباقاً، ولا أجعلها تتملك مني أبداً، وبعد مُضي بعض من الوقت، قالت لي أن اتبعها إلى غرفة سيف، وعندما قامت تسبقني، رأيتني!!، نعم.. لقد رأيتني، كانت هيئتيّ ظلاً، لكنني أرى ملامحي، تبدو بشعة بعض الشئ، برغم أنها غير واضحة، لكنني أعرفُني جيداً، كان ذلك الظل هو أنا، بملامح دميمة وبشعة، مر ما يشبهني ودخل غرفة سيف!!، هذا كله حدث في ثوانٍ معدودة، تمالكتُ نفسي رغم الذعر، حرصت ألا تظهر على ملامحي أية ردة فعل، تثير شكوك السيدة وفاء تجاهي، حافظت على هُدوئي، رددت بعض الأذكار داخل نفسي، ومشيتُ خلفها، وكانت السيدة وفاء قد سبقتني للدخول إلى الغرفة، ووقفت أمام الخزانة، وبمجرد أن وطأة قدميّ أرض الغرفة، تيبستُ موضع قدميّ، إذ أنني رأيت سيف والسيد صالح وأمي وكرم والطبيب الشرعي، وإسراء، متراصةً جثثهم تفترش

الأرض!!، كانوا جميعهم موتى!!، كُفنوا داخل الأقمشة البيضاء، ظهرت وجوههم فقط، وقد تغير لونهم الطبيعي إلى الأزرق!!، أعينهم مفتوحة جاحظة، وتحمل ملامحهم نفس الخوف والذعر والرعب!!، هذا كله في ثواني معدودة أيضاً!!، وفجأة!!؛ قُطع التيار الكهربائي، كتمت أنفاسي، ظللت اتمالك نفسي، أغمضت عينيّ حتى أستطيع الحفاظ على الثبات الذي بالكاد اصطنعه، حينها سمعت السيدة وفاء تُتمتم ببعض الكلمات، وبرغم أنني أسمعها جيداً إلا أنني لا أجد لها أي معنى..

(قاتم، حالك، مُظلم، سديد، مريد، مديد).

(لبيت ما طلبت، فكن لي عوناً، لتختلط دمائنا، لتسيل وتروي كل جنودك الظَمِآ).

(لا دماء أنقى ممن ضل طريقه، ويريد طريقك، تقبل مني قُرباني، وأنعم عليّ بقوتك).

(أيها الظل، السائر، الفارع، المُتقمِص، سألتكَ بجميع الأسماء المحببة إليك، وقد نادوا بها علِيك السلف، وسوف ينادي عليك بها خير الخلف، أن تقبل مني هذا القربان، وتمنَ عليّ بقدرتك).. (سألتك باسمك الأعظم أن تحضر، فلتحضرَ يا مَاروخ يا بن المارق يا بن الخبث).

كان جسدي يرتعد كمن أصابه جرح بالغ، وهي تقول قولها هذا!!، ثم أردفتْ وهي تسألني في دهشة:

«لماذا تقف هكذا مُغمض العينين؟!»..

فتحتُ عينيّ، وخمنتُ أن التيار الكهربائي لم ينقطع، بل كان هذا نتاج لفعل شيطاني، حتى يُبعث بداخلي الخوف، وأن لا أرى ما يتم فعله، رأيت الخزانة مفتوحة، وبداخلها باب مفتوح أيضاً يظهر خلفة غرفة منعزلة مخبأة داخل الخزانة!!، فهمتُ حتى لو أنني هنا لتُكشف لي حقيقة شئ ما، فلن تتكشف لي بأكملها حتى أثبتُ ولائي، وأتبعُ الشيطان، باتت الأمور مفهومة الآن، وكلمات السيدة اللعينة صاحبة الكُفر واضحة وضح الشمس ظهراً، كانت إذاً تُعّوذُ بكلماتها حتى يحضر ذلك الخَبث، فوالله هو اسم على مُسمى بالفعل، في تلك الأحيان شعرت بالأدرينالين يتدفق داخلي، ملأ التحدي والشغف نفسي إلى قمع الشيطان والتخلص منه، نظرت لها نظرة ثابتة، ثاقبة، قوية، وقد رحل الخوف عني، قلت:

- كنت استمع إلى كلماتك بآذانٍ صاغية، أغمضت عينيّ حتى أرى حقيقة الأشياء وأَشعر بها، كأنني رأيت ما كنتي تنادينه، ارتجف جسدي كأن قوة لا تُضاهى عبرت من خلالي، أشعر بحماسة كبيرة لمواصلة الطريق..

ارتسم الفرح على تقاسيم وجهها، رأيت هذا رغم محاولتها لإخفاء ذلك، أشارت لي أن اتبعها، خطوتُ ورائها مشدوهاً، أصاب عقلي الجنون، إذ أنني دلفتُ إلى غرفة مستطيلة، متوسطة الحجم، تتلون جدرانها بالأسودِ القاتم وامتلأت بصورٍ بشعة المنظر، ورسوماتٍ تخلع القلب، وغطت الأرض أغطيةً من فراء الماعز وجلود الماشية، وفي الناحية اليمنى وضعت أريكة وثيرة كبيرة الحجم، يقبع أمامها طاولة

صغيرة قصيرة القوائم، طُليت بنفس طلاء الجدران، رُسم عليها بلون أحمر رأس بشع، وكتب عليها بخط الرقعة اسم»المُتَقمِص«، وبجوارها وضعت مبخرة نحاسية يعود شكلها إلى ربما قبل ألف سنة، ونُحت على جسم المبخرةِ رموزاً وحروفاً لا أعلم منها شيئاً، أعتقد أنها تعود لعصر معين للدولة الإسلامية داخل العراق، هذه الصناعة مميزة وتفطنُ من النظرة الأولى، أنها تنتمي للعرب، وكان هناك مكتبة خشبية، تحوي ارففها كتب قديمة جداً، وتترك أثراً سئ بالنفس عند رؤيتها، وخلاف ذلك، فكانت الغرفة خاوية من أي شئ آخر يُذكر...

اقتربت السيدة اللعينة من المكتبة وأخذت كتاباً، ثم دنت وجلست فوق الأريكة، مدت يدها إلى الأسفلِ ولا أعرف أين وضعتها؟، وأخرجتها وهي تُمسك بها سكيناً لامع النصل، بدا أنه حاد، قاطع، وضعت الكتاب أمامها فوق الطاولة وأسكنتْ جانبه السكين، فتحت الكتاب على صفحة أخيرة بها رسومات لا تقل رعباً عن تلك التي تسكن الجدران، وبمنتصفِ الصفحة دائرة فارغة، ثم نظرت إليّ بنظرات خبيثة، قَالت:

«اقترب يا عمر، أنت الآن تخطو صوب الموعد الأول مع من تمنى الكثيرين أن يحظوا بمثل هذه الفرصة العظيمة معه»...

كنت حينها في غاية التعجب!!، كانت والله لتتحدث بلسانِ شيطان، من ذا الذي يتمنى أن يُعاهد الشياطين والجن؟، من

العاقل الذي يقدمُ على الكُفر هكذا وكأنه انتصاراً عظيماً!!، هذا الإنسان هو الأسوأ على الاطلاق، رغم أن اللّه قد فضله على سائر خلقه، إلا أنه أول من يُنكره، بل يتجبرَ ويتفننَ في عبور طرق الضلال واتباع الشيطان وهوى نفسه قبل الشيطان، ألم يرى في سيرَ السابقين آياتِ للعظة؟!، اقتربت منها حتى لا تشك بي وأَنا استغفر اللّه دَاخل نفسيٍ، طالباً منه أن يعينني على ما أُقدم عليه، وأن يجعلني سبباً في نحرِ هذا الكُفر المبين..

ولما اقتربتُ منها، مسكت يدي بقوة، قوة رهيبة لا توحي بأنها سيدة أبداً!!، عبس وجهها، قطبتْ ما بين عينيها، اتسع بؤبهما، بدأت تتكلم بصوت غليظ، جهير، تقرأ كلمات من صفحة الكتاب لا أفهم معناًها، دَبَ الخوف بقلبي، ارتعدتْ فرائصي، انتصب كل شعر جسدي، شعرت أن الأرض تهتز تحت قدميّ، أنفاس تشهق وتزفر وكأنها تصارع الموتِ، ثمٍ لاح أمام نظري خيالات تطوق الغرفة، وتزرعُها ذهاباً وإياباً بسرعة رهيبة، ضعفت الإضاءة وبدت أكثر خفوتاً، ارتفعت درجة حرارة جسدي، تصببَ العرق من جبهتي، كما لو أنني يفصلُني عن قرص الشمس، بضع سنتيمترات!!، شعرت أن جسدي يحترق بالفعل!!، جف حلقي كصائم، لم يذق جوفه الماء لأيام، جذبت يدي إليها أكثر فأكثر، عًلىَ وارتفع صوتها وزادت حدته، مسكت بالسكين وعملت به جُرحاً على راحة كف يدي!!، صرخت وتأوهتُ، جذبت كفي نحوها وهو ينزف بكل قوتها، فسقطت أرضاً، جثا على ركبتيً، ألمَ بي الألمُ، تلونت الطاولة بلون دِمائي، فأخذت تُبلل إصبعها

من دمي السائل فوق الطاولة، وتُلون وتملأُ به الفراغ داخل الدائرة، حتى أصبحت الدائرة حمراء!!، حينها عاد كل شئ إلى طبيعته، وصرخت من شدة الألم، وفقدتُ الوعي..

******

صالح

بدأت مع الدكتور محمد تحضير جثمان كريم إلى الغُسل، وعندها، سألته:

ـ أين جثة كرم؟، الجثة التي طلب منك كريم أن تعاونه في تشريحها، وكان يعمل عليها قبل وأثناء الوفاة؟!..

حينها، أشار لي على أحد أدراج حفظ الموتى، أو بالأحرى جثامينهم، نبض هاتفي الداخلي، أشارٍ لي هو الآخر، أن أدنّو صوب الدرج، عليّ أن ألقي نظرة إذاً، حتى ينتهي محمد من إعداد ما يلزم، أمسكت بمقبض الدرج ويدي ترتعش، ابتلع ريقي بصعوبة، ارتفعت أصوات أنفاسي، كان قلبي يخفق بشدة، أغمضت عينيّ لبضع ثوانٍ، ثم أتخذتُ قراري وفتحت الدرج، وتيبسَ جسدي كالموتىً!!، إذ أنني وجدت جثة كرم وفوقها قطعت قماش الكفن المكتوب عليها اسمي، تلك التي وجدتها فوق المقعد الخلفي لسيارتي، كيف جاءت إلى هنا؟!، أنا متأكد أنني قد تركتها في موضعها، هرولتُ إلى الأسفل وتجاهلت سؤال محمد لي عن وجهتي، فتحت سيارتي، فلم أجد قطعة القماش فيٍ داخلها!!، ما هذا العبث؟، ما هذا الجنون؟، عُدت مهرولاً إلى الأعلى، وفتحت

الدرج ثانيةً بعد أن أغلقهُ محمد، فوجدت قطعة القماش كما هي، ولا زال اسمي مكتوبٌ عليها!!.. أيعقل أنني سوف ألقى نفس مصير كرم وكريم ومن سبقهم؟!..

« ماذا دهاك يا صالح؟! ... أخبرني».

سألني محمد متعجباً، فأجبته في حيرة من أمري:

- لا شئ.. لا وقت للحديث الآن، هيا. علينا أن نُنجز ونُنهي ما بدأناهُ قبل أن يتأخر الوقت أكثر..

حينها كان هناك شئ واحد يجب عليّ فعله، هو أن أذهب إلى عمر عند تلك السيدة، لا أعرف ما يجب أن أفعله بعدها، لكن.. لربما يخبرني نبض هاتفي الداخلي وقتها، يجب أن أنجز الغُسل حتى ألحق بعمر قبل انتهاء زيارته..

كانت الساعة تقترب من التاسعة، اليوم تمُر ساعاته وكأنها دهراً، يتداخل به أشياءٍ عجاب، لا يستطيع العقل أن يستوعبها، وبينما كنت أتحدًث إلى نفسي، قاطع صوتي الداخلي رنين الهاتف، فظهر على شاشته اسم إسراء، فما لها أن تتصل بي إلا لتُخبرني بحدثٍ جلل، أجبت عليها، قالت بلهفة:

«أعتذر سيدي لأنني اتصل بك، لربما كان الوقت غير مناسباً، لكن حدث معي ما لا يمكن تأجيله، ذاك الظل البشع يتقمص هيئة عمر، لقد حاول قتلي، وبعدها وجدت رسائل من عمر عبر (الواتساب)، دعني أرسِلها لك لتراها، فأنا لا أفهم منها شيئاً، ولا أفسر منها شيئاً»..

أغلقت معي المكالمة، وأهتزَ هاتفي ببعض الصور ومقطع للفيديو عبر (الواتساب)، وبعد أن رأيت ما تحتويه، ارتعدَ جسدي، وجن جنوني، كان لا بد أن أنقذ عمر بأقصى سرعة مُمكنة، نظرت إلى كريم والدموع ترقرقت بعينيّ، ناجيتهُ متوسلاً أن يسامحني إنني سأتركهُ وأرحل، فهُناك من يظل حياً ويريدٍ يد العون، أعلم إن كان ما زال حياً يرزق، لتفهم الأمر جيداً، نظرت إلى الدكتور محمد وطلبت منه أن يستمر في عمله، ولا يتصرف في أي شئ، حتى أعود له ثانيةً، أومأ برأسه متفهماً ملبياً، وأطلقتُ ساقيّ للريح وهبطت إلى الأسفل، قُدت سيارتي وأنا أتحدث إلى إسراء عبر الهاتف، طلبت منها أن تلحق بي عند بيت هذه السيدة المدعوة صفاء..

******

عمر

لقد اتقنت التمثيل، اكتشفت في نفسي ممثل محترف، إذ أنني لم أفقد الوعي فعلاً، بل اصطنعتُ ذلك حتى أستطيع ارسال ما قمت بتصويره وتسجيله إلى إسراء، قبل أن أدخل إلى هنا، خبأتُ هاتفي تحت كُمٌ سُترتي السوداء الثقيلة، ومن حُسن حظي أن هاتفي لونه أسود، وأن تلك السيدة الشيطان لم تلحظ أنني أخفيه، لذلك أطلقت على نفسي لقب ممثل بارع..

سقطت أرضاً بعد كلِ الممارسات الشيطانية، أغمضت عينيّ، ووجدت نفسي أُحمل كالأطفالِ إلى غرفة أخرى،

حافظت على هُدوئي، وأن لا أفتح عينيّ مُطلقاً، وعندما شعرت أنني وحدي، أرسلت لإسراء بسرعة مقطع الفيديو وبعض الصور التي اقتطعتُها منه، وبعد أن انتهيت، اعدتُ الهاتف إلى موضعه تحت كُمٌي، ووجدت سيف يقف أمامي مباشرة!!!، كان يبدو بكامل هيئته وملامحه التي احفظها عن ظهر قلب، وجههُ المستدير، عيناهُ الضيقتين المتواريتين خلف نظارته الطبية، لحيته الخفيفة الغير مشذبه، شعر رأسه الخفيف الذي غزاه الصلع، أرى طيبته تظهر من ملامحه، بدا عليه الحزن، وقف ينظر إليّ في ثبات دون أن يتحرك جسده أو نظرهُ، بقى هذا الوضع لدقيقة أو أكثر قليلاً، ثم ظهرت فجأة السيدة الشيطان ومرت من خلاله وهو لا زال واقفاً!!.

قالت بصوتٍ عبوس وملامح غزاها الغضب:

«انهض.. أولم تأتِ إلى هنا لتجد إجابة، أم آتيتَ للنوم والراحة؟»..

سألت نفسي حينها:

أنىَ لي أن وضعت مكانة لهذه السيدة في قلبي!. وكأنها أمي؟، إنها الشيطان بعينه... نهضت دون أن ينطق لساني، خرجت خلفها واختفى سيف..

عدت معها مرة أخرى إلى الغرفة السرية الكائنة داخل الخزانة، وكان هناك أمام الطاولة ذات القوائم القصيرة كرسي، قد وضع حديثاً، أشارت لي أن أجلس، وأوثرتَ هي

الأريكة، قالت بخبث:

«انصت الآن جيداً لما سأقصهُ عليك، وقبل أن أفعل، عليك أن تعرف أنك الآن عاهدت (مَاروخ)، وإن حاولت نقض العهد، لن تنجو من الموت»..

كانت لا زالت درجة الحرارة الغرفة عالية، وأشعر بأصوات الأنفاس، وحركة غير طبيعية داخل الغرفة، لكنني ركزت أكثر، ونظرت صوب السيدة اللعينة الشيطان، التي أمقتُها بأضعافِ ما أحببتها. أردفتَ قائلة:

«اسمعِ يا عمر، كل إنسان منا يسلك الطريق الذي يراه صحيحاً، فهناك من رضوا الذل والهوان، وهناك من رضوا الفقر وقلة الحيلة، وهناك من تمردوا، وطلبوا حقوقهم في هذه الدنيا كاملة، القوة والثراء والهيبة، وأنا وزوجي كنا ممن أرادوا التمرد، لذا قررنا منذ أن تزوجنا أن نسلك هذا الطريق، كان هو يعمل مع أحد الصالحين الذين يساعدون الناس ويُخرجوهم من قيعانِ السحر»..

_ قولت في نفسي ساخراً مستهزئ: أحد الصالحين؟!، بل واللّه أحد الطالحينَ الشياطين، أحد أبناء ذاك الخبث اللعين، قلت لها:

هل تسمحين لي أن أُدخن؟، أومأتْ بنعم، ثم تابعت:

- تعلم زوجي منه الكثير والكثير، حتى إنه أعتبر زوجي ابناً له، فعلمهُ من علمه، ولم يبخل عليه بأي شئ، واستمر على هذه الحال 4 سنوات، أنجبت في السنة الأخيرة منهن سيف، وجاءت في انتهاء تلك السنوات بعد مولد سيف لحظة

حاسمة، إذ مَرِضَ الرجل الصالح مرضٌ شديد، وعند لحظة الاحتضار، أخبر زوجي بكل خباياه، وأنه يخبأُ ثروة طائلة في مكان ما سري داخل شقته وبعد أن مات ذاك الرجل، بحثنا داخل شقته عن ما أخبر به زوجي، ووجدنا ما فاق خيالنا!!، ثروة طائلة من النقود والكتب كذلك، حينها قررنا أن نكمل طريق ذاك الرجل، فالبحر يُحب الزيادة كما قالوا السلف، والمال هو ذاك البحر، لذا سلكنا هذا الطريق، وكان لنا ما أردنا، هيبة كبيرة، ثروة طائلة، وشهرة واسعة بين أولئك الذين يهابون كل شئ في حياتهم، القوة هي الحياة يا عمر..

_ هذا ما يصوره الشيطان لأتباعه، يهيئ لهم طريق الشرك والكفر، يمهد لهم كل سُبل الرَغدَ، بل أنه يُقنعهم قناعة تامة، أن هذا هو طريق الخير، لقد اقترفت تلك السيدة في حق اللّه وعباده ما لم يجرؤ الشيطان أن يقترفهُ .. هكذا كنت أتحدث داخل نفسي وهي تتحدث إليّ.. استرسلتَ الحديث قائلة:

- قد ساعدنا الكثير والكثير من الناس، عدد لا يُحصى ولا أتذكره، وفي المقابل زادت قوتنا، ولكن تأت الرياح بما لا تشتهي السفنُ، مرضَ زوجي فجأةً بعد 10 سنينٍ من موت الرجل الصالح وولادة سيف، لا يهم موته كثيراً، لن أخفي عليك، لم يكن مرضاً، بل كان تمرداً .. نعم، لقد تمرد زوجي، أراد سُلطة مُطلقة، وهذا ما رفضه قائد العشيرة التي نتبعها، كان ولا زال (مَاروخ) استثنائي عن بني جنسه، يقبل الشراكة ولا يقبل أن القيادة تؤول لغيره، لذا رفض ما طلبه زوجي، وبعد أن عصى زوجي أوامره وحاول

أن ينتمي لغيره، أنهى عليه (مَاروخ)، لم يتركه ليحيا بعدها ثانية واحدة، ولذلك أحذرك أن تتمرد، لن تجد بعدها ثانية واحدة حتى للندمِ..

ـ ربما الشئ الوحيد الذي سوف أندم عليه، أن لا أقتل لكَ بيدي.. هكذا حدثت نفسي مغاضباً، لا أستطيع أن أجهرُ بما يدور داخلي، لذا اكتم غضبي، وأتحدثُ إلى ومع نفسي حتى أترك لها مساحة للاعتراف، أنا أسجل حديثها الآن .. قلت:

استمتع بحديثكِ يا سيدتي، لقد أضرم حديثكِ داخل نفسي نار الشغف والشوق لمعرفة المزيد، وأن أتعلمَ منك، أكملي سيدتي، ماذا حدث بعد ذلك؟!.

ارتسمَ على ثغرها ابتسامة خبيثة قالت:

- ثم مضيت في الطريق وحدي، زادت الأموال والشهرة والقوة أضعاف عما كان من ذي قبل، واستمر الحال ل10 سنوات أخرىً، كبرت وكبر معي سيف، أصبح حينها مراهقاً يافعاً في عمر ال 20، لقد ربيته على هذا النحو، زرعت بداخله أساس الطريق الذي سوف يسلكه، دون أن أشركهُ في شئ بطريقة مباشرة، ولما حانت اللحظة المناسبة، كان لا بد أن يساعدني فيما أعمل به، وقد كان، كان يساعدني سيف كذراعيَ اليمنى التي لا غنى عنها، أدبر أنا، وينفذ هو، دعني أشرح لك ما كانت مهامهُ تحديداً، لأنها ستؤول إليك، وسوف تقوم أنت بها بعد ذلك...

لم أُبد أي ردة فعل، التزمتُ الصمت فقط، قامت من

مجلسها، واقتربت من أحد الأرفُف الخشبية، لم أحدد ماذا فعلت تحديداً، لكنها عادت إلى مجلسها ومعها هاتف، ثم وضعته أمامي وقالت:

- أنظر، هذه الصور ومقاطع الفيديو، هي أسرارٍ عملنا، وما نقنع به أولئك الضعفاء الذين يريدون العون دائماً وأبداً، عندما نشعر أنهم مهيؤون بالكامل، نعرض عليهم مثل هذا، فنملكُ زمامهم، ونتحكمُ في مصائرهُم، بل وفي أنفسهم..

_ كنت أنظر كما طلبت مني إلى شاشة الهاتف، مدت إصبعها، نقرتْ أعلى الشاشة فظهرت صورة لبنت في غاية الجمال، قالت:

- أنظر.. هذه الصورة لبنت في حياتها العادية، فاتنة

وعلى قدرٍ عالٍ من الحُسن والجمال.. ثم حركت إصبعها مرة تلو الأخرى تقّلب صوراً لنفس البنت، وفي كل مرة يتغير ويتحول شكل البنت إلى الأسوأ والأبشع!!، وبعد أن وصلنا إلى الصورة التاسعة، كانت البنت أصبحت مسخاً!!!، تحولت إلى نسخة من هؤلاء المتحولين داخل أفلام الموتى الأحياء (الزُومبي)، لم أستطع أن أحافظ أكثر على ثبات نفسي، وظهر الخوف والوُجوم على ملامحي، حينها حركت إصبعها، وكانت الصورة العاشرة، وظهرت البنت فيها ميتة!!، وكان على ملامحها، نفس ما احتل ملامح سيف وأمي وكرم!!!... قالت السيدة اللعينة الشيطان وهي تضحك:

- لا .. لا يا عمر، هل خِفتَ من هذا؟، حسبتك تستطيع المواجهة، نحن لم نبدأ بَعد، فهناك ما يفوق ذلك بمئات المرات، هذه البنت كانت تريد الخراب لبيت سيدة متزوجة، فتنت زوجها بجمالها، سكن حبها قلبه، وسال لعاب جيبهُ وشهوتهُ إليها، كَرِهَ بيته وزوجته، وكان في طريقه أنٍ يتزوجها، حينها جاءت لي السيدة، وطلبت مني وتسولتْ أن أُساعدها، وافقت .. فكانت مُلبية، لم تتأخر عن أي طلب طلبه مَاروخ، فكان لها ما أرادت، وحدث ما رأيته في الصور، إنها العدالة يا عمر، نحن هنا نحقق العدالة..

هل أقتُلها الآن؟!، هذا ما وجهته لنفسي متسائلاً..

نحن لا نملك أي حق في أذية غيرنا حتى لو كان يأذينا، إٍن اعتبرتُ أنها محقة ولا تكذب، فليس لها أن تقتل شخصاً، ربما هناك أسباب خفية، وربما كذبت تلك السيدة المتزوجة وافترتْ على البنت الجميلة دون وجه حق، فأنا لا أصدق أي شئ مما تدعيه تلك السيدة الشيطان اللعينة، فما رأيته بعينيّ لا يجعلني سوى أن أعرف إنها كاذبة لعينة، لا يهمها تحقيق عدالة أو استرجاع حق أو غيره، كل ما يهمها الأموال والثروة ورضا الشيطان عنها،

هل هناك ما هو أبشع من ذلك؟، تبدى أمامي مشاهد موت أحبتي، فأدركت أن ما قالته، لا يساوي شئ، إنها قاتلت أمي، ولا بد أن أنتقمُ لها، ولكن الصبر، سأدعُها تحكي أكثر، وتفرغ كل ما تخفيه من أسرار داخلها..

******

صالح

أنا هنا منذ نصف ساعة أو أكثر، أقف في بداية طريق (صلاح سالم)، والشارع لا يتحرك، لقد علقتُ هنا، ولا أحد يعرف شئ أو تعليلاً لما هذه العطلة، أرى على مرمى بصري ازدحام السيارات، لقد تركها أصحابها وخرجوا منها، فمنهم من جلس فوقها، ومنهم من وقف إلى جانبها، واجتمعوا كلهم على الحيرة والاستغراب، قال فريق إن الازدحام بسبب حادثة ما، وقال آخر أن هناك إصلاحات، وقال غيرهما أن هناك استعدادات لتأمين العبور لأحد المسؤولين، بقت كلها تكهنات، تكهنات المصريين التي لا تنقرض أبداً، أما النتيجة فهي واحدة، أنا عالق هنا، وهناك شخصٌ يريد مساعدتي، لا أعرف.. هل لا زال حياً أم فات الوقت على قول ذلك؟!، اتصلت بإسراء، ردت عليّ. فكان حولها أصوات صاخبة ومزعجة، صاحت قائلة:

«سيد صالح، هل وصلت؟، أنا لا أسمعك، هل تسمعني جيداً؟، أنا لم أصل بعد، أنا عالقة هنا عند آخر معروف قبل شارع ثروت بقليل، هناك ازدحام غريب، لم أر مثله في حياتي، أنا هنا منذ 20 دقيقة، ولا أعرف متى سينقضيَ هذا».

قلت:

أنا عالق أيضاً عند صلاح سالم، إذا حدث جديد سأتصلُ بكِ، وأنتِ كذلك، أغلقت معها المكالمة، وجلست داخل سيارتي مَحبطاً، لا أملك أن أجد أي حل لهذا المأزق، كل

ما يتوجب عليّ فعله هو الانتظار، الانتظار فحسب!!..

قمت بتشغيل محطة الأخبار بالراديو، وسمعت المذيعة تقول:

«أنباء عاجلة. نشب حريق هائل في طريق صلاح سالم، إثر اصطدام شاحنتين محملين بالوقود، مما أسفر عن حدوث عدد من الانفجارات المدوية، ومصرع عدد من المواطنين، وهذا أدى إلى ازدحام مروريٍ هائل في طريق صلاح سالم والمناطق المحيطة به، وأغلقَ عدد آخر من الطرق حتى يقوم المسؤولين بحل الأزمة، و...

لم أكن احتاج إلى سماع المزيد من الثرثرة، مَدّدتُ جسدي، وسلمت بالأمر الواقع...

******

عمر

شرعت السيدة الشيطان اللعينة تحكي وتقصَ عليّ ما أحزن قلبي وزاد في نيتي للثأر منها، عرضت عليّ الكثير من صور ضحاياها، الذين عاشوا حياة هنيئةً هادئة، وانتهى بهم الحال بعد تدخلها إلى موتى لا حول لهم أو قوة، ومقاطع للفيديو أثناء تواجدها مع سيف داخل مقابر، تارة دفنوا أشياء داخلها وتارة دفنوا أشياء داخل أفواه الموتى!!، وتارة أخرى أخذوا حفنة من تراب المقابر أو قطعوا جزءً من أجسادهم البالية، حتى حُرمات الموتى انتهكتها، وبررت ذلك أنه في سبيل تحقيق العدالة!!.

حتى انتهت من حديثها حول أفعالها الشيطانية، التي أصفُها بالشيطانيةِ ولكن بالنسبة لها هي لتحقيق غاية سامية نبيلة، لا أتعجب مِن أفعالها ، كنت في بادئ الأمر كذلك ولكن بعد أن شرعت تحكي زال العجب، ما أتعجب منه حقاً، أن تلك السيدة ومن مثلها وأي شخص يسلك طريق الشر، يجد لنفسه مبررات ومبررات، لا تحصى ولا تعد، بل يتحدث عنها وكأنها انتصارات أكبر مما خلفته الحضارة الفرعونية مثلاً، إن الشر مرضٌ، أخطر من الكورونا والطاعون والكوليرا، لربما عمل العلماء على إيجاد أمصالٍ تردع المرض، منها ما نجح ومنها ما فشل، ولكن لم ولن يَحدث يوماً، أن يكتشف أحدهم مصلاً يردع الشر داخل قلوب بني آدم..

لن يجدي الحديث داخل نفسي نفعاً، لذا ارتفع صوتي وسألتها:

- إذاً، ماذا عن موت سيف؟.

ردة فعلها قتلت توقعي!!، إذ أنها ضحكت بمجرد أن طرحت عليها السؤال، وكنت توقعت أنها تبكي، إنها الشيطان فعلاً وقولاً!!، قالت بغضب:

- غبي، أحمق، أرعنْ، كان يعيش في كَنَفي، ينعم بالمال والرغد، حتى اتبعك، فتمردَ كما تمرد والده، حتى لو اختلف نوع التمرد، لكن نهاية التمرد هي الموت الحتمي، أنت السبب ياعمر في موت سيف، جعلته يتغير، يصلي، يقرأ القرآن، وما شابه من مثل هذه الطقوس، ولذلك كان لا بد مجيئكَ إلى هنا رغماً عنك، تابعاً، خادماً، ملبياً لماروخ

الملك المتقمص، أنت من غيرت وبدلتَ حال سيف، مكثت تتصحه، وتجذبهُ إلى طريقٍ آخر غير طريق ماروخ، هددني أنه سوف يُشي بي إلى الشرطة، ما كان يهمني ذلك، كنت أعلم كل العلم أنه لن يفعل، لكنه اتخذ القرار بعدم مساعدتي، فجاء الأمر من ماروخ أن يموت سيف، لم أستطع الرفض أو تقديم أي التماس، كان لا بد أن أنفذ التعليمات، وهمتهُ أن لا ضرر في ذلك وله كامل الحرية أن يتراجع، كانت هذه الخطة الموضوعة من ماروخ، عشنا فترة وجيزة على هذا النحو، ثم جاءت اللحظة الحاسمة، علمت بها بعد أن رأيته يدخل غرفته ويضع نظارة داخل درج الكومود الخاص به، بعد أن عاد من الخارج، سألته عنها. فقال إنها واحدة من النظارات الأنتيكة الخاصة بالقراءة، لقد ابتاعُها أثناء ما كان بالشارع، ففطنتُ أن لربما ماروخٍ دبر هذا، ليُخبرُني أنه لم يدبر هذا، إنما هذا فعلاً اعتيادياً، ويستغله حتى تكون هذه النظارة هي السبب في موت سيف، سبب تؤول إليه ميتتهُ، انتظر ماروخ اللحظة المناسبة، وأنت تعرف ما حدث بعدها، مات سيف، ثم تطورت الخطة، وجاءت التعليمات أن أقرأ بضعة أشياء على النظارة، وأن أضعها بطريقة غير مرئية أسفل سرير سيف، وسيُدبر ماروخ الباقي، هكذا نجحت الخطة، وعلمت أنك التقطتها واحتفظت بها، ثم تابعت كل ما طرأ على حياتك من بعيد، ثم جاءت الأوامر مرة أخرى، فأرسلت إليك إياد بأمر ماروخ حتى يخالك، ويدلكَ على طريقه، وكان له ما أراد، ضللت طريقك كما جعلت سيف يضل طريقه، وها أنت هنا الآن ...

لم أكن أملك كلمات تصف ما يدور داخلي، ولا حتى استطعت أن أتحدث إلى نفسي وأفرغُ غضبي، تداخلت الأحاسيس في نفسي، وشعرت أنني تائه!!، ساد الصمت بيننا لدقيقة، ثم كسرت الصمت قائلة:

- دعني أخبرك بشيء آخر، قيل لي أن كل من اتبعوا الطريق المضاد لطريق ماروخ وبني جنسه، ثم انْتكسوا، كانت لهم أولوية الانضمام إلى ماروخ، بل سيحفظ لهم مكانة كبيرة، وهم قلائل، انقياءً، لا تَشّوبهمُ شائبة، فإن شائبتهم، لن يعودوا كما كانوا أبداً، وحينها ماروخ أولى بهم، وأنت تخطيت حدودك، عاديتَ ماروخ حتى لو لم تقصد، هذا لا يجدي نفعاً، ولا يهمه في شئ، مدام كنت سبباً في تغيير وهدم بعض خططه، فأنت مذنب في حقه، ووجب عليكِ العقاب، لكن النقاء الذي تملكه داخلك هو من أنقذكَ، وجعل ماروخ يريدك كأحد أفراد حاشيته المقربين، لذا اتبعك بنفسه، وكان لك رقيباً، ولهذا أنت هنا الآن يا عمر، هنا في حضرة الملك المُتقمص..

أنهت حديثها الذي دام طويلاً ، منتصف الليل قد حل، وازدادت الخيالات في الظهور، تعبر أمامي وخلفي، تبدلت الأجواء، فسيطرَ على الغرفة فجأةً موجة من البرد القارص!!، صرير الريح يمتزج بالصمت، ونظراتها الخبيثة تغزو قلبي، الذي ازدادت نبضاتهُ كظبيً مذعور، وعلى حين غرة، كسر الصمت صوت تحطيم وتكسير، كان يؤول إلى باب الشقة، وايقنتُ ذلك عندما سمعت جلبة تأتِ من خارج الغرفة، ثم

فجأة، كسر باب الغرفة التي تجمعني مع السيدة الشيطان اللعينة، لتقتحم الشرطة علينا الغرفة، يتقدمهم السيد صالح وهو يُشهر سلاحه في منتصف جبهة السيدة اللعينة.

******

صالح

جلست داخل مكتبي، أنتظر عمر، غمرتني سعادة بالغة لا تصفها الكلمات، تفاصيل ليلة أول أمس تنطبع بمخيلتي، أعتقد أنها ستكون هكذا إلى الأبد، فبعد ما عانيت من الإحباط والهَزِيمَةَ، جلست مكبل الأيدي والفكر، لا أستطيع فعل شئ، فقِدت كل حُظوظي باللحاقِ بعمر، راود عقلي أنه ميت لا محالة، فاتت الدقائق ثقيلةَ ومُخزية واحدة تلو الأخرى، ساعة أو أكثرٍ على هذا النحو، ثم ومن غير سابق إنذار، تبدل الحال كلياً، ووجدت السيارات بدأت تتحرك، حينها اتصلت بصديقي رئيس مباحث القسم التابع له المنطقة التي تسكن بها السيدة وفاء، وطلبت منه أن يتبعني إلى هناك بصحبة قوة من رجاله، اتصلت بإسراءِ، وأخبرتني أن طريق قد تحرك، وبعد مدة بسيطة وصلت إلَى البناية المقصودة، لا أعرف كيف انفض الازدحام بهذه الطريقة؟، ولا كيف وصلت بهذه السرعة؟، ولا لمَ وصل كل الأطراف المعنية في نفس ذات اللحظة؟**!**، لا يهمني ايجاد أية إجابة، إنها تدابير القدر، دون تفكير أمرت القوة أن تتبعني، صعدنا إلى شقة تلك السيدة واقْتحمناها على الفور، ومِن ثّمَ دلفتُ إلى غرفة سيف، فوجدت باب الخزانة مفتوحاً وخلفه بابٍ مغلق**!!**،

أمرت القوة أن تكسره، ووجدت تلك السيدة تجلس داخل الصومعة الشيطانية ومعها عمر، حمدت اللّٰه أن أرسلني في الوقت المناسب، ألْقينا القبض عليها على الفور..

قطع صوت طرق الباب تفكيري، فعدت إلى الواقع، أذنت للطارقِ أن يدخل، فكان عمر، دلف إلى غرفة مكتبي، أشرت له أن يستريح، دنا من الكرسي القابع أمام مكتبي، قلت:

_ أهلاً بك يا صديقي، نعم.. أنت من الآنِ فصاعداً صديقي، لقد عانينا معاً، وسوف نكون بخير معاً، أرجو أن تعود إلى حياتك مجدداً مرة أخرى، تنسى الماضي كذكرى أليمة، وتتعلم منه كدرس لا ينسى، أنت هنا حتى يتسنى لنا أخذ بعض الأقوال لا أكثر، وانتظر مني زيارة قريبة في منزلك..

شرعت في عملي، مارست معه لعبة س و ج مع عمر، وبعد أنهى وقع على أقواله، أذنت له بالانصراف، بدا عليٍ عمرٍ التشتت، ولكنه طبيعي، فكل ما مر به، لم يكن سهلاً أبداً، بل للحق إنه لرجل حتى يتحمل كل ذلك، تذكرت كريم أيضاً، حزنت تارة، وفرحت تارة أخرى، يُمزق قلبي فراقه، ويسعدني أنني استطعت رد حقه والثأر له، سيكون الإعدام مصير تلك السيدة لا محالة، بعد أن أرفق مع ملف القضية كل اعترافاتها، بل أن الإعدام مرة واحدة لن يكفيها، لكن يقيني بما ستلقاهُ بعد ذلك يُثلج صدري.

******

بعد مرور 3 أشهر

صالح

لقد أثلج صدري حقاً، بعد أن سمعت القاضي وهو يصدر حكم الإعدام على تلك السيدة، فعند مواجهتها بكل ما اقترفته من أفعال شيطانية والضغط عليها ومحاصرتها، اعترفت بكل شئ، وأنها قاتلة ابنها وغيره من الأبرياء بالسحر والشعوذة، وبعدِ الجلسة أصر عمر أن أذهب معه إلى بيته، فقدم لي عرضاً مغرياً، إذ عرض عليّ أن أتناول مع وجبة الغداء، وإنه سيطلب لنا أكلة اتحاكى بها من (أسماك ابن حميدو). فلم أستطعٍ الرفض، اتصلت بزوجتي التي عادت إلى المنزل مؤخراً ولم تتأخر عني كما جرت العادة، واعتذرت لها أنني لن أستطع تناول الغداء معهم، ذهبت معِ عمر إلى بيته، جلسنا، طلب الأكل عن طريق الهاتف، ودلفَ إلى المطبخ ليصنع لنا كوبين من القهوة حتى يصل الطعام، لقد أخبره متلقي الطلبات، أن الطعام سيصل بعد ساعة حيث أن هناك ضغطٍ كبير على الطلبات، غاب عمر لبضع دقائق، وعاد حاملاً صحفة فوقها كوبين من القهوة، وضعها فوق الطاولة التي تِتوسط شرفة غرفته الفسيحة، وبعد أن جلسِ أمامي وأشعلَ إحدى سجائره، لاحظت عليه أنه لا زال تائهاً، لا أعرف إن كان ما خمنتهُ صحيحاً أم إنني أتوهمُ؟!، سألته بلطف:

_ هل لا زالتَ تائهاً يا عمر، ألم يحن الوقت أن تستعيد نفسك وعملك مرة أخرى؟!..

نفث دخان سيجارته بيأس، قال وهو يمسح بيده ذقنه بتوتر:

« صراحةً؛ لا زال الحزن يحفر طريقه داخلي، كل لحظة تمر عليّ هنا داخل أروقة البيت، أتذكر أمي، فينخرط قلبي، ويُعمق مشهد رحيلها ثقب الألم في نفسي، أحاول جاهداً أن أعبر ذلك الإحساس، لكن.. رغماً عني لا أستطيع، فهي كانت كل شئ في حياتي».

رأيت الدمع ترقرق بعينيه وسال على وجنتيه، حينها وصل إليّ ما يشعر به، ربت على كتفه، قلت برفقٍ:

_ لا عليك يا صديقي، فأنا أشعر بفاجعتك، وما ألمَ بكَ من الألمِ والحزنَ واليأس وضيق الحال وقلة الحيلة، فلا يبكي الرَجال ويقسم ظهورهم، إلا موت أمهاتهمٍ، رحمة اللّه على والدتك، ولنا لقاء معها في دار الحق قريباً مهما طال الوقت، خذ وقتك، احزن كما شئتَ، ولكن تذكر، أنها لربما تشعر بنا ، ولن يُرضها أن تراكَ مهزوماً هكذا ، انهض وانفضْ الحزن عن قلبك...

حاولت بعدها أن أغير مجرى الحديث، واستبدلتهُ بآخر عن كرة القدم وآخر ما يحدث في دوري العجائب، وفي رواية أخرى (القطايف واللَطَايف)، ثم انتقلنا إلى الكرة الأوربية، ومن حديثٍ إلى حديث حتى رحل الحزن عن عمر وارتسمتْ الابتسامة على ملامحه، حتى وإن كان مؤقتاً، إلا أن ذلك فيه فائدة كبيرة، طُرق الباب، فتح عمر، وأخيراً لقد جاء الطعام..

مضى الوقت سريعاً، لم أشعر به، كأنَ عمر صديقي منذ الطفولة، غابت الشمس وتغير لون السماء إلى البرتقالي ليعلن الليل عند قدومه، وسرعان ما تبدل البرتقالي بالأسودِ ولمعتْ النجوم بالسماءِ، حينها أيقنت أنني تأخرت، إن كنت لا زلت أعزب عزيزي القارئ فأنت لا تعلم ماذا تعني كلمة تأخرت، فربما تُطرد وتبيتَ في أحضان الأرصفة ... أمزح بالطبع، للنساء عاطفة تتحكم بهن، فلا بد أن تدرج ذلك في حسبانك..

استأذنت من عمر أن عليّ المغادرة، رن هاتفي برقم لا أعرفه، أجبت، فقال المتصل بنبرة حيرة:

« سيد صالح، أنا الرائد (طارق فتحي)، من مصلحة السجون، هناك خبر لا بد أن أخبرك به، لقد حدث شئ ليس له تفسير، لقد وجدنا السيدة وفاء، التي حكم عليها بالإعدام في الصباح ميتة داخل حبسها الانفرادي، وملامحها يسكنها َالذعر والخوف، عيناها جاحظتانِ، شاخصتانِ إلى الأعلى، تلون وجهها ٍبالأزرقِ والأصفر، فمها مفتوحَ عن آخره، كأنها رأت شبحاً فماتت من أثر الرعب والذعر، أرجو أن تحضر إذا سمحت»..

أغلقت المكالمة، كان عمر ينظر إليّ في ترقب بعد ما لاحظ الوُجوم قد احتل ملامحي، وتبدل حالي في لحظة من الابتسام والسرور إلى الحيرة والذهول، سألني، فصمت لدقيقة ولم أجبه، لقد تاه مني الكلام، استجمعت شتات نفسي، قلت:

_ لقد وجدوا السيدة وفاء ميتة داخل حبسها الانفرادي، وعليها نفس علامات ما حدث للذين سبقُوها من الموتى.

قال:

«لقد تأكد الشك بداخلي الآن، إنه لا زال بالجوار، أو ربما هنا، إن الشيطان لا زال يسكن بيننا، أو ربما يسكنني، نعم.. يسكنني، فهو يريدني، أنا دوناً عن أي شخص آخر، لقد انتهى دور السيدة الشيطان اللعينة، لذا يتوجب عليّ أن أواجههُ وحدي، سأذهب إليه الآن، لن أنتظر أكثر من ذلك»..

برزت عروقي من الغضب، صِحتُ في وجههُ وقلت:

_ لن تذهب إلى أي مكان، ستبقى هنا حتى أعود إليك، لن أتأخر، وحتى إن تأخرت لا تترك البيت أبداً، ولا تذهب إلى أي مكان حتى نتقابل مرة أخرى..

هرولت مسرعاً صوب باب الشقة ومنه إلى الشارع..

******

عمر

لم يتسنى لي أن أتحرك من موضع قدميّ، وقفت مكاني داخل شرفة غرفتي، اشرأبُ ناظراً إلى الشارع، فخرج السيد صالح من البناية يتحدث عبر هاتفه، يهرول متوجها صوب سيارته التي تركها عند الجهة المقابلة لبيتي، وفجأةً!!، ظهرت سيارة من العدم صدمته!!، صدمت السيد صالح،

فسقطت أرضاً!!، لقد لمحت ذلك الشيطان داخل السيارة، كأنه يتقمص السائق!!، لم أستطع الحراك، وكأنَ السيارة صدمتني أنا، حالة من فقدان الوعي أو الإحساس سيطرت عليا، جسدي ينتفض ولا أستطيع التحكم به، رأيت الدماء تسيل من أنف ورأس السيد صالح، سكن جسده بالكامل، احتشد الناس مذعورينَ من حوله قائلين بأسى:

« لا حول ولا قوة بالله، إنا لله وإنّا إليه راجعون»..

جاءت سيارة الإسعاف، ووضع المسعفين جثة السيد صالح داخلها ورحلت، انفض الجمع، وانتهت الجلبة، وكنت لا أزال أقف مشدوهاً دون أن أتحرك، ساكناً كعقارب ساعة تالفة، عاد الصمت رويداً رويداً إلى الشارع مرة أخرى، وانتقلت الجلبة والفوضى والدهشة إلى نفسي!!، لقد قتل الشيطان شخص آخر حاول مساعدتي، بل انتظر أن يكون ضمن أحبتي حتى يقتله، الأمر بدا واضح، سأذهب إليه حيث ينتمي في المكان الذي يسكنه داخل الغرفة السرية.. لن أنتظر لحظة واحدة ..

بدلت ملابسي، واتصلت بإسراء وأنا في طريقي إلى مدينة نصر، أخبرتها أنني في طريقي إلى هناك لمواجهة الشر، وإما أن أنهي عليه، أو ينهي عليّ، فلا حل آخر وأنني رأيت بعينيّ صالح يموت أمامي دون ان أستطيع فعل أي شئ له، ولا أريد أن أراها تموت هي الأخرى، وإنما أخبرها حتى تعرف كم أحببتها ولا أريد أن أرى فيها مكروهاً، وإن مِتُ تحسن مثواي، فلا أريد أن يتم تشريح جثتي، لم أنتظر

منها أي رد، أغلقت معها المكالمة قبل أن تنطق بأي كلمة، وشرعت في استكمال طريقي إلى مواجهة الشيطان...

******

إسراء

كان عمر يتحدث إليّ وهو في حالة صعبة يرثى لها، يريد أن يلقي بنفسه داخل ألسنة اللهب، يواجه من يفوقه في القوة بألف مرة، لم يعطيني أي فرصة للنقاش أو حتى أن أنطق بكلمة واحدة، لذا لم استطع الانتظار، بدلت ملابسي وهرولتُ إلى شقة سيف، حيث ذهب عمر، وبعد مضي ساعة تقريباً وصلت إلى البناية، صعدت إلى الشقة فوجدت الباب مفتوحاً!!، حسبت أن عمر قد تركه هكذا، أو ربما اصطحب حارس العقار معه، أو صديق له، هكذا خمنت، ولجتُ إلى الشقة بخطوات بطيئة، ناديت على عمر فلم يرد، مرة تلو الأخرى وأنا أُنادي عليه ولا جدوى من ذلك، الصمت يحتل جميع الأرجاء، لا صوت مسموع سوى دقات قلبي العالية، شعرت فجأة أن ثمة هواء بارد يضربِ في جسدي، ثم امتزج صوت صرير الريح بالصمت فأضافَ على الخوف بداخلي خوفاً، وصل إلى مسامعي صوت همس ينادي باسمي، صوت يأتِ من غرفة سيف، بدا لي أنه صوت عمر، خطوتُ ببطيء صوب الصوت، كنت أمشي كطفلٍ يتعلم المشي، ساقيّ تصطكانِ، أطرافي باردة كأنها داخلٍ أكوام من الثلج، غزت دموع الذعر عيني فلم أكن أبصر جيداً، ووجدت باب الخزانة مفتوحاً، وتَتَبَدى أمامي الغرفة التي كنت بها منذ

أشهر ماضية عند القبض على السيدة تلك، كان لا زالٍ صوت الهمس ينادي باسمي، لذا دخلت إلى الغرفة رغماً عني، وفجأةً، صرخت صرخة مدوية نابعة من أعماق خوفي!!، إذ وجدت عمر يفترش الأرض جثة هامدة!!، ينزف أنفه، عينيه جاحظتينِ، ووجههُ ملون بالأزرقِ!!، أُغلقت الأبواب من خلفي بقوة، ثم ظهر فجأة أمامي ظلَاً أسود اللون، أعرفه جيداً يشبه هيئة عمر، هذا الذي رأيته منٍ قبل وحاول قتلي!!، وفي لحظة تبدلت هيئته، فأصبح ظلاً ليس له ملامح سوى عينان سوداوانِ لامعتانِ، لهما برق كالفضة، جسده نحيلٍ للغاية، له ساقانِ قصيرتان، وباقي جسده طويل جداً، كان مرعب، بشعِ، مسخ لعين، وفجأة سمعت صوت يشبه الانفجار يأتِ من الخارج، وأصوات أناس تصيح وتُهلل، جلبة كبيرة تحدثَ بالخارج، ثم أُضرمت نار كبيرة حولي، صرخت وأنا لا أستطيع أن أخطو، فالنارْ تحاصرني، بدأت أختنق، حُبست أنفاسي، ولم أشعر بشئ بعدها...

******

لقد أخبرني الدكتور كريم الطيب منذ فترة قبل وفاته، عن حالات موت ظهرت على جميعها نفس العلامات التي ظهرت على جثة صالح، وجثة كريم نفسه من قبل صالح!!، ولذلك هاتان الجثتان تنضمان إلى قائمة موتى الرعب، بالطبع لهما علاقة مباشرة بالأحداث، خصيصاً وأن صالح قد حقق من قبل في مقتل شاب، كان يسكن تلك الشقة مع والدته، التي كشف صالح أنها قاتلت ابنها ووجدت هي الأخرى ميتة داخل حبسها الانفرادي، وظهر عليها نفس الملامح، لكنني

مضطر الآن أن أُوقع على التقرير النهائي، لا دليل يدين أي شخص..

التوقيع:

دكتور محمد سيد.

******

تمت بحمد الله